قصة الطب عند العَرب

تأليف

أحَمد حسنين القرني

تقديم ومراجعة

د. كمال عبد العزيز

الكتاب: قصة الطب عند العَرب

الكاتب: أحمد حسنين القرني

تقديم ومراجعة: د. كمال عبد العزيز

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

القرني ، حسنين، ، أحمد

قصة الطب عند العَرب / أحمد حسنين القرني ، تقديم ومراجعة: د. كمال عبد العزيز

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٨٧٧ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢١٧٧٣ / ٢٠١٨

قصة الطب عند العَرب





تقديم

الطب العربي هو مجموعة العلوم الطبية التي توصل لها الأطباء، والعلماء العرب حول الأدوية، والأمراض، وطرق علاجها، ويعرف أيضاً بأنه الدراسات، والنظريات العلمية التي تبحث عن الحقائق العلمية حول مسببات الأمراض، من خلال دراسة أعراضها، والوسائل المناسبة لتجنبها، والوقاية منها، وتقديم العلاج الصحيح للمرضى المصابين فيها. ويعد الطب العربي من أشهر أنواع العلوم الطبية المعروفة عالمياً؛ إذ اعتمد الأطباء العرب على البحث والاكتشاف والتجربة، ومتابعة الحالة المرضية للمرضى، وهذا ما أدّى إلى تميّز الطب العربي عن الطب الغربي، فاعتمد معظم الأطبّاء الغربيين قديماً على الشعوذة والسحر والبحث عن علاجات غير منطقية للأمراض، من خلال اللجوء إلى مجموعة من الطقوس والمعتقدات الغريبة التي كانوا يعتقدون أنها تساهم في الشفاء من الأمراض بكافة أنواعها، ولكنّهم كانوا يتسبّبون بسوء الحالة المرضية للمريض، مما يؤدي غالباً إلى وفاتهِ.

الأطباء العرب هم مجموعة من العلماء العرب الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية دراسة الأمراض، وتجربة تأثيراتها، ومعرفة العلاجات المضادة لها، والتي تم الوصول إليها من خلال معرفة خصائص الأعشاب والنباتات الطبية حتى تمكنوا من علاج الأمراض الشائعة، والمنتشرة في عصورهم، وظلت هذه الدراسات تتطور مع تعاقب الحقب الزمنية ليصبح

الطب العربي، والأطباء العرب جزءًا مهمًا، ومؤثرًا في مجال العلوم الطبية العالمية.

من الممكن تصنيف ظهور الأطباء العرب على المرحلتين التاليتين:
الأطباء العرب قبل الإسلام هم مجموعة من الأفراد الذين امتلك أغلبهم خبرة في علاج بعض الأمراض، مع وجود فئة منهم اعتمدت على الفكر الغربي المرتبط بالسحر من أجل التوصل لعلاج مختلف أنواع الأمراض، فكان أغلب الأطباء في العصر الجاهلي يلجئون إلى تأويلات غير صحيحة للأمراض، ولا تعتمد على أي حقائق علمية، ولكن ظهر في عصر ما قبل الإسلام مجموعة من الأطباء المثقّفين، ومن أهمهم لقمان الحكيم، والحارث بن كلدة، وغيرهما ممن اهتموا بدراسة العلوم الطبية المعتمدة على أبحاث صحيحة، ودقيقة وواقعية.

الأطباء العرب المسلمون هم مجموعة الأطباء الذين تواجدوا مع بداية انتشار الدين الإسلامي، واعتمدوا بدراستهم للطب على العلوم الدينية التي اهتمّت بصحة الإنسان والمحافظة عليها، من خلال تغليب دور الغذاء على الدواء، وأيضاً اهتمّ الأطباء العرب المسلمون بدراسة العلوم الطبية القديمة العربية والغربية حتى يتمكّنوا من الوصول إلى خلاصة مفيدة منها، وترك كافة الآراء، والمعتقدات الخاطئة، والتي لا تقدم أي علاجات طبية صحيحة، ومن أهم الأطباء العرب في الإسلام ابن سينا، وابن رشد، والرازي، والزهراوي؛ وغيرهم.

تطور الطب العربي واعتمد تطوره على مجموعة من المراحل، ومن أهمها: التأليف والاستكشاف وهي المرحلة التي قام بها الأطباء العرب بالسفر والترحال من بلدانهم الأصلية إلى بلاد أخرى من أجل التعرف على الأمراض، وعلى الأطباء الآخرين الذين اهتموا بدراسة علم الطب، ليضع الأطباء المسلمون مجموعةً من المؤلفات الطبية المفيدة التي ساهمت في إثراء المكتبة الطبية العربية.

ثانياً مرحلة الترجمة والنقل، وهي المرحلة التي اعتمدت على الاستعانة بالمؤلّفات الطبية الغربية والفارسية، وما نُقلَ من بلاد ما بين النهرين، وحرص الأطباء العرب على أخذ الخلاصة المناسبة من المؤلفات التي درسوها، ومن ثمّ أضافوها إلى المؤلفات المترجمة التي وضعوها، مع حرصهم على التأكد من صحة ما حصلوا عليه، من خلال التجربة، والمعاينة، والمتابعة الطبية المستمرة.

الأطبـاء المسلمـون بلغ عددهم في بغداد وحدها زمن المقتدر بالله (٨٦٠) طبيبا؛ كما بلغ عدد الأطباء النصارى الذين خدموا المتوكل أواسط القرن الثالث الهجري (٥٦) طبيباً.. وكان سيف الدولة إذا جلس حول المائدة جلس معه (٢٤) طبيباً. ومنهم من كان يتقاضى أجره مرتين لتعاطيه مهمتين طبيتين. ومنهم من كان يتقاضى أجره ثلاث مرات لتوليه ثلاث مهمات طبية، وكان لهؤلاء الأطباء تخصصات متنوعة؛ فمنهم (الجراح – الفاصد – علاج النساء... إلخ).

كما كثر الكحالون في مصر أكثر من غيرها لانتشار أمراض العين بهذه المنطقة؛ كما نبغ عدد لا بأس به من النساء الطبيبات منهن: أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها: وتخصصت في مداواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور، ولم يكن يُقبل سواهما، ثُم اشتهر في أيام بني أمية (زينب) طبيبة بني أود. وكانت على دراية واسعة بالجراحة وأمراض العين. و(شهدة الدينورية) و(بنت دهن اللوز الدمشقية)، وغيرهن، وكان الفحص الطبي عندهم يقتصر على فحص البول، ونبض القلب وكان المريض يحضر معه زجاجة بول.

العرب هم أول من استخدم المرقد (البنج)، وهم الذين تفطنوا لعلاج الأظافر واليرقان (بو صفار) كما وصفوا صب الماء لقطع النزف، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة. ووصفوا إبرة الماء الأزرق (قدح العين)، وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصاة، وهم أول من كتب في فروع الطب مثل الجذام. وأول من كتب فيه (يوحنا بن ماسويه). وهم أول من وصف الحصبة والجدري في كتاب (أبي بكر الرازي)، وفي الصيدلة استطاعوا جلب العقاقير من الهند وغيرها، وذلك في أيام (يحي بن خالد البرمكي) كما إنهم أول من اشتغل بتحضير العقاقير..

ومن خلال الأضواء الكاشفة المستمدة من المكانة العظيمة لأجدادنا العرب القدماء في مجال الطب يأتي هذا الكتاب المهم مُلقيا الضوء على علمائنا العرب الذين أناروا الدنيا يوم أن كانت تتخبط في الظلمات، وصاروا علامات يهتدى بها.. بما توصلوا إليه من علوم ومعارف مهمة في

مجال الطب، ليصير مرجعا بالغ الشأن.. لنتعلم منه وننشر علمه على الآخرين، كي تستمر مسيرة الثقافة العلمية، وتنهل من كل ما جيد وأصيل، نتكئ عليه في مسيرتنا نحو المستقبل، متسلحين به وعاملين على تطويره.

د. كمال عبد العزيز



مقدمة المؤلف

في سلسلة تاريخ العرب حلقات مفقودة، وحلقات تحيط بها شكوك وريب، وحلقات وثيقة مجمع عليها.. أما الحلقات المفقودة ففي تاريخ العصر الجاهلي، إذ لا نعلم علماً مقطوعاً به حقيقة حياتهم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. ولسنا نعرف مبلغ ما وصلوا إليه من حضارة، وما كانوا عليه من تقدم أو تأخر.

إن كل ما عرفناه عن هذه الفترة من التاريخ مصدره ما وصل إلينا من شعر شعرائهم. وما قاله شراح هذا الشعر من أدباء العصور الإسلامية.

وإذا عرفنا أن العرب كانوا بدواً وحضراً، وأن الشعراء جميعاً – إلا قلة قليلة منهم – كانوا من أهل البادية، تجلى لنا في وضوح أن هذا التاريخ الذي يعتمد على الشعر، إنما هو تاريخ لأهل البدو دون أهل الحضر.

ولم ينقل إلينا الرواة شيئاً من شعر الحضريين، وانتحلوا لذلك عذراً ساقوه إلينا مساق القاعدة العامة، فقالوا: إن الشعر استمد اسمه من الشعور والعاطفة، والعاطفة في البداوة أقوى من العقل، لذلك كثر شعر في البادية وساد. وإذا أخذنا بوجهة النظر هذه، جاز لنا أن نتساءل عن الشعراء الإسلاميين، وعن شعراء العصور المتأخرة، أكل هؤلاء من أهل البادية، أم أن شعرهم كله صناعة لا أثر فيه لعاطفة أو وجدان؟

الحق الذي أقطع به بعد البحث والاستقصاء أن المدونين للشعر إنما أرادوا بتدوينه حفظ اللغة وتسجيلها فاختاروا أحفل الشعر بالكلمات اللغوية التي يخشون أن تؤثر فيها الحضارة والاتصال الشديد بالأجانب فتخملها، لذلك عمدوا إلى شعراء البداية يتخيرون من شعرهم خير ما حمله الرواة إليهم، ولم يثبتوا لنا من شعر الحضريين إلا النذر اليسير، وقد عللوا ظهور وصف السفن في شعر طرفة والأعشى بأنهما كانا يترددان على الحضر، ويزوران بلاد الشواطئ.

وإذن فمصدر تاريخ العرب كما وصل إلينا هو شعرهم، وشعرهم الذي وصل إلينا لا يمثل إلا بداوتهم. فما تاريخ الحضر عندهم؟

لقد كان العرب عُباد أصنام وأوثان كما كان اليونان عُباد أوثان وأصنام، وكثير من آلهتهم يقع التشابه بينهما، وعبادة الأصنام تستلزم وجود صناعة النحت والتصوير كما حدث في اليونان فلا بد أنه كانت لهم تماثيل، ولا بد أنه كان هناك صناع لهذه التماثيل، ولو أتيح للبلاد العربية علماء متخصصون في الآثار ينقبون ويبحثون، وأتيحت الحكومات المتحررة التي تعين على الكشف وتشجع على التنقيب فربما ظهرت آثار تدل على مجد عريق، وفن أصيل.

وما دام هناك آلهة متعددة فلا بد أن يكون لكل إله بيت يعبد فيه كما كانت الحال في اليونان، وفي مصر القديمة .. وإذا وجد بيت العبادة

وجد معه الكهنة. وقد أثبت التاريخ أنه حيثما يوجد الكهنة يوجد الطب إذا كان الكاهن هو الطبيب.

وإذا أخذنا بهذا التسلسل المنطقي وصلنا إلى تقرير أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الطب ويزاولونه، وكانوا يسمون من يزاوله الطبيب أو العراف، ومن هنا أيضاً في اللغة كلمة الطب ومشتقاتها، وكلمة العرافة ومشتقاتها.

ومما يؤثر عن العرب أن أهل البادية منهم كانوا في حروب مستمرة تقاتل كل قبيلة أختها، فإذا لم تجد القبيلة من يقاتلها أو تقاتله قاتل أبناؤها بعضهم بعضاً حتى قال شاعرهم:

وأحيـــاناً علـــى بكـــر أخينـــا إذا مـــا لم نجـــد إلا أخـــانا

وبديهي أن مثل هذا القتال لا بد أن تقع فيه جروح، ولا يمكن أن يترك الجريح بدون محاولة لإنقاذه من جروحه، وتخليصه من آلامه، وهذه المحاولة هي المعالجة، ولذلك تقول مادة اللغة: عالج الأمر: حاول فحصه وإصلاحه: والنتيجة المنطقية لهذا أن الأطباء عرفوا في الجاهلية، وكثروا في كل قبيلة لأن وجود القبيلة يستتبع اشتراكها في حرب، واشتراكها في الحرب يعني وجود جرحى ومصابين، ومن ثم وجود أطباء ومعالجين.

* * *

والعرب في الجاهلية كانوا على اتصال وثيق بالأمم التي تحيط بهم اتصالاً اقتصادياً وسياسياً، وجرت بينهم وبين بعض مجاوريهم حروب وتتبعوا تطورات الحروب بين الجيران.

عرفوا الحبشة وكانت بينهم وبينها علاقة تجارية وثيقة، فأهل اليمن كانوا على اتصال دائم بها، وأهل الحجاز يقصدونها في أثناء رحلتهم إلى اليمن شتاء تلك الرحلة التي ذكرهم الله بها في كتابه العزيز إذ يقول: (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) ووقعت بينهم وبين الحبشة حروب أشهرها "حرب الفيل" التي أشار إليها القرآن الكريم: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ).

والحبشة كانت من الدول الكبرى يومئذ واتبعت دين المسيح الذي كانت معجزته الكبرى في الطب والعلاج، وكان من طبيعة مثل هذه الصلة أن توجد الأطباء إن لم يكونوا موجودين فعلاً.

واتصل العرب بالفرس والروم، وتتبعوا تطورات السياسة والحروب بينهم، وكان من العرب من يتعصب للفرس، ومنهم من يتعصب للروم، وتجلت هذه الظاهرة في أول الإسلام، إذ كان الفرس عُباد نار وأصنام يتعصب لهم مشركو العرب وكفارهم، وكان الروم مسيحيين يؤمنون بالله ويكفرون بالأصنام والأوثان، فهم أقرب إلى قلوب المسلمين من الفرس، ودارت رحى الحرب بين الفرس والروم، وتتبعها العرب بتطلع شديد.

وانتصر الفرس ففرح المشركون بذلك وأخذوا يغيطون به المسلمين؛ وهنا نزل قول الله تعالى في القرآن الكريم: (الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ....) وبعد سبع سنين وقعت الحرب مرة أخرى بين الفريقين، وانتصر الروم على الفرس، وفرح المؤمنون كما وعدهم القرآن الحكيم.

خلاصة كل هذا أنه كان هناك اتصال وثيق بين العرب والحبشة والفرس واليونان والروم، وكل هذه البلاد كان فيها طب وأطباء فلا بد أيضاً أن العرب كان فيهم طب وأطباء.

ومن دلائل ما كان للعرب من حضارة ضاربة في القدم "سد مأرب" الذي هو في الواقع أقدم سدّ خزان عرف في التاريخ. ولسنا نعرف عن حقيقته أكثر من أنه عمل فني، وبناء قوي أقيم على أن تتجمع خلفه الأمطار في مستودع لا يغيض فيه الماء، ثم يصرف جزءاً فجزءاً على حسب حاجة الأرض إلى الري فيكثر الخصب، وينمي الزرع، وكان معجزة المعجزات ولذلك سماه الله "آية" حيث قال: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ).

والبلد الذي يتاح له مثل المهندسين الذين يقيمون هذا السد أيعقل أن يكون خلوا من الأطباء؟ وإذا كان تاريخ السد مجهولاً، وحقيقته لدينا غير معروفة، فالطب كذلك تاريخه مجهول، وحقيقة أمره كما كان عندهم غير معروفة لدينا، وسنحاول في هذا الكتاب أن نجلي شيئاً من حقيقته بقدر ما وصل إليه جهدنا في البحث، والتنقيب، والاستنباط.

والله الموفق وبه نستعين.

أحَمد حَسنين القرني

الفصل الأول

نشأة الطب

من الأسماء التاريخية في الطب "أبقراط" اليوناني الذي يعرف حتى الآن في شتى أنحاء العالم بأنه "أبو الطب"، ومن تلاميذه الخالدين "جالينوس" اليوناني وقد ذكر جالينوس هذا في تفسيره لكتاب "الإيمان" لأبقراط أن البحث بين القدماء عن أول من أوجد صناعة الطب ليس أمراً هيناً.

هكذا قال جالينوس الذي عاش قبل مولد المسيح بقرون عدة فماذا عسى أن نقول نحن اليوم؟.

أحسب أننا لا نملك إلا أن نقول: إننا لا نستطيع أن نعرف معرفة يقين تاريخ نشأة الطب، وتاريخ طفولته وشبابه، وإنما هي معرفة قائمة على مجرد الاستقراء والاستنباط، وكل ما يجب أن نؤمن به هو أن التراث الذي خلفه القدامى يعتبر الأساس الذي قامت عليه النهضة البشرية التي يجني العالم اليوم ثمارها.

آراء في نشأة الطب:

يرى فريق من العلماء أن الطب قديم قدم خلق الإنسان، فهو منذ وجد، ومنذ أحس بالآلام أخذ يحتال للتخلص منها، وقد ألهمه الله جلت قدرته سبل تخفيف وطأة هذه الآلام أو الخلاص منها، وهداه إلى ذلك بالتجربة، ثم أخذ هذا الذي هدى الله الناس إليه يتسع باتساع تجاربهم؛ ومن هنا نحكم أن الطب قد قام على التجارب، وهو اليوم يدرج في قسم "العلوم التجريبية".

أول تجربة طبية:

يقال: إن أول تجربة طبية اهتدى إليه البشر كانت في مصر، وذلك أن سيدة ذات شأن في المجتمع الفرعوني كانت قد أصيبت بفساد في المعدة يسبب لها هماً وحزناً يلازمانها بدون سبب ظاهر، وأزمن معها الداء، ولازمها الهم والحزن حتى كرهت العيش والحياة. فاتفق لها أن أكلت من نبات كان يسمى "الراشن" ورأته شهياً فعاودت الأكل منه أكثر من مرة فنشطت معدتها، ومع نشاط المعدة في أداء وظيفتها زال حزنها، وأشرق وجهها، وعادت إليها صحتها، فأخذت بعدئذ تصف هذا النبات لكل من ألمت به علة مثل علتها، فشاع خبره، وأقبل كل مصاب بهذا الداء على استعماله.

هكذا قال في تاريخ الطب كثير من العلماء، ومنهم حنين بن إسحق أقدم مترجمي كتب الطب اليوناني في العصر العباسي.

ويقول الدكتور أحمد الرشيدي في كتابه "عمدة المحتاج": إن الراشن يسمى أيضاً "عرف الجناح"، وكثيراً ما يسمى "الجناح الشامي" وهو نبات معمَّر، جذره ثخين مخروطي قليلاً، وقمته مغطاة بورق قطني، وطعمه مر عطري، وإذا مضغ كان لاذعاً. والمادة المرة فيه مقوية، والمادة العطرية اللاذعة منبهة.

هكذا قال بعض الباحثين إن تلك كانت أول تجربة في الطب، ولكن فريقاً آخر من العلماء الذين أرخوا الطب يقولون: إنه من ابتكار شخص اسمه "هرمس".

من هرمس:

يذهب القول في هرمس الذي يزعمون أنه أول واضع للطب مذاهب:

١- هناك "هرمس الأول" الذي اسمه عند الفرس "ذو العدل" ويقولون: إنه حفيد آدم.

والعبرانيون يقولون: إنه "أخنوخ" الذي يعرفه العرب باسم "إدريس" النبي عليه السلام.

ويقول أبو معشر الفلكي العربي القديم: إن هرمس كان عالماً بالفلك والطب، وأنه أنذر بطوفان نوح، ولجأ إلى مكان في صعيد مصر قرب أخميم، وبني البرابي.

أما ابن القفطي فقد افتتح كتابه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" بكلام طويل عن هرمس وعن القول بأنه إدريس النبي، وعن الذين خلفهم من بعده. ومنهم يونان الذي سكن بلاد الإغريق ونكاد نقيم من قول ابن القفطي هذا أن اليونان أخذت هذا الاسم منه.

ويقول ابن حجة الحموي: "هرمس هو المثلث بالنعمة: نبي، وحكيم، وملك. وهو الذي صير الرصاص ذهباً، وبنى الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال".

وابن النديم أيضاً يقول في كتابه "الفهرست" إنه أحد السدنة السبعة، وكان يتولى بيت عطارد، وسمي باسمه لأن عطارد في اللغة الكلدانية هو "هرمس". ويقولون: إنه كان حكيم زمانه، انتقل إلى مصر، ومات بها، ودفن في المكان الذي يعرف باسم "أبي هرمس" أو الهرمين، وأحدهما قبره، والآخر قبر زوجته.

هكذا يقول ابن حجة وابن النديم: إن هرمس بنى الهرمين، ولكن الذي لم يعد موضعاً للشك ما أثبتته الكشوف الأثرية من أن الهرم الأكبر بناء الفرعون خوفو. وأما الهرم الأوسط فبناء الفرعون خفرع. فهل هرمس هو خوفو في رأي ابن النديم ورأي من أخذ عنهم؟

ولم يتعرض ابن النديم للهرم الأصغر إذ لم يكن قد كشف عنه في وقته، وقدامى العرب كانوا في حديثهم عن الأهرام يذكرون هرمين اثنين. فترة أمية بن عبد العزيز يقول:

بعيشك هل أبصرت منظراً على ما رأت عيناك من هرمي مصر
أنافا بأعنان السماء وأشرقا على الجو إشراف السماك أو النسر
وقد وافياً نشراً من الأرض عالياً كأنهما نهدان قاما على صدر

ويقول عمارة اليمني:

خليليَّ ما تحت السماء بنية تماثل في أنقالها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

ويقول المتنبي:

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟

٢- هناك "هرمس" الثاني، ويقولون: إنه من أهل بابل، وإنه هو الذي بنى مدينة بابل، وجدد ما كان قد دثر بالطوفان، وإنه وضع قواعد الطب والفلسفة.

٣- وهناك هرمس الثالث، ويقولون: إنه من سكان مصر بعد الطوفان وإنه كان طبيباً وفيلسوفاً، وعالماً بطبائع الأدوية، وبالحيوانات المؤذية ويقولون: إنه كان له تلميذ ذو شأن اسمه "أسقليبوس" كان يسكن أرض الشام. وأهل اليونان يذكرون أن أسقليبوس هو أقدم أطبائهم، وعنه أخذ أبقراط وذكره في كتبه. وقد جاء في "كتاب النجوم الزاهرة" أن هرمس المثلث الحكمة هو الذي يسميه العبرانيون "أخنوخ" وأنه استدل من أحوال

الكواكب على حدوث الطوفان فأمر ببناء الأهرام لتكون مستودعاً للأموال وصحائف العلوم، وكل ما يخشى عليه أن يندثر.

رأي اليونان في تاريخ الطب:

يرى أهل اليونان أن أسقليبيوس هو أقدم أطبائهم وأن "أبقراط" أخذ عنه وذكره في كتبه. وتقول طائفة منهم: إن أول المتطببين كانوا من أهل "فولوس" باليونان، ويزعمون أن هؤلاء المتطببين أخذوا الطب أول ما أخذوه عن مولدة رأت زوجة الملك مريضة مرضاً شديداً، فركبت لها دواءً أبرأها من هذا المرض الميئوس من التغلب عليه.

وطائفة ثالثة منهم تذهب إلى أن الطب إلهام من الله، ومنهم جالينوس الذي يقول إن: "الأوفق عندنا والأولى هو أن الله خلق صناعة الطب وألهمها الناس، وذلك أنه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الإنسان". ومذهب جالينوس هذا يؤمن به كثير ممن جاءوا بعده ويقولون به في كثير من العلوم، ومنهم ابن حيان عالم الكيمياء العربي الذي يرى أن العلم تلقين مصدره الوحي، وأن العلم نقل وليس عقلاً، وليس كشفاً أصيلاً، ولكنه تنزيل من السماء، ولذلك فإن لفظة كيمياء معربة من اللفظ العربي (كيم يه) أي إنه من الله، على حسد ما جاء في كتاب كشف الظنون.

وقالت طائفة من العلماء: إن أول من استخرج الطب هو "أسقلبيوس" الذي أخذ عنه أبقراط كما ذكرنا قبل، وزادوا على ذلك أنه تلقى الحكمة عن هرمس:

ويقول القفطي في أخبار الحكماء: إنه سبق جالينوس بخمسة آلاف عام، وأنه كان له صورة في هياكل اليونانين وصفها جالينوس بأنها صورة رجل ذي لحية، وله جمة ذات ذوائب وإذا تأملته وجدته مشمراً مجموع الثياب، قد حمل في يده عصا معوجة ذات شعب، مأخوذة من شجر الخطمى. وتشمير الثياب رمز إلى نشاط الطبيب، وإبراز الأعضاء التي تعمل في العلاج، وحمل العصا رمز إلى تنبيه الناس، واتخاذها ورق شجر الخطمى رمز إلى الدواء، لأن شجر الخطمى – كما يقول حنين ابن اسحق – يسخن تسخيناً معتدلاً.

الكلدانيون والطب:

قبل كل شيء أحب أن أشير إلى أن كثيراً من علماء التاريخ يرى أن الكلدانيين فرع من شجرة العرب، ويبنون قولهم هذا على كثير من الاعتبارات. ويقول الباحثون في التاريخ الطبي: إن كهنة بابل من الكلدانيين كانوا أول من بحث في علاج الأمراض، وكانت سبيلهم إلى ذلك أن يعرضوا المرضى العامة على أعين السائرين عسى أن يكون من بينهم من سبق أن نزلت به مثل هذه العلة، وعوفي منها، فيذكر للمريض سبب شفائه، ويدوّن الكهان ذلك في لوح يحفظونه لديهم ومن ثم كان التطبيب

من صناعة الكهنة. وعن الكلدانيين أخذت الأمم القديمة ومنها أبناء عمومتهم من العرب.

وكما نسبت طريقة عرض المرضى على أنظار الناس إلى الكلدانيين نسبت أيضاً إلى قدماء المصريين، فقد ورد في كتاب "سترابون" الجغرافي اليوناني الذي كان من أجل علماء القرن الأول المسيحي أن قدماء المصريين كانوا لا يستكبرون على استقصاء طرق البحث ويلتقطون الحكمة حيث كانت. فإذا أصيب أحدهم بمرض واستعصى علاجه يضعونه في أشهر الميادين أو على أبواب المدائن، أو الطرق الموصلة إلى المجتمعات العامة ويبقونه في كل جهة من هذه الجهات زمناً يناسب كثرة المارين ليرى الناس في ذهابهم وإيابهم أولئك المرضى.. ويجعلون مع كل مريض حارساً يصف مبدأ المرض وعوارضه، ويتباحث مع كل زمرة عسى أن يكون في ذاكرتهم، أو في تجاربهم ما يشبه حالة المريض، وطرق المعالجة أوصلت مثله إلى الشفاء.

اليونان والطب:

تناول اليونانيون القدماء الطب كغيرهم من الأمم القديمة غير أنهم أتقنوه أكثر من غيرهم لما وهب لهم من استعداد فطري لهم، فقد تمكنوا من ترتيب أبوابه وتحسين أساليبه، وعنهم أخذ الرومان والفرس هذا العلم الجليل.

العرب والطب:

نظراً لقرب العرب من اليونان والفرس كان لهم حظ من هذا العلم فقد اقتبسوا من طب هذه الأمم ما أضافوه إلى الطب الذي اكتسبوه من أبناء عمومتهم الكلدانيين، ثم ضموا إلى هذا وذاك تجاربهم الخاصة فظفروا من العلم بنصيب وافر.

وظيفة التطبيب:

صناعة الطب موضوعة للعناية بأشخاص الناس:

(أ) إما لأن تفيدهم الصحة عند المرض وتخلصهم من الآلام والأوجاع وهذا ما نسميه الآن "الطب العلاجي".

(ب) وإما لتحفظ عليهم الصحة وتذود عنهم المرض، وتقيهم كل ما يجلب العلة، وهذا هو ما نسميه "الطب الوقائي".

مؤهلات صناعة الطب:

منذ ظهرت صناعة الطب قالوا: إنها تحتاج إلى أن يعرف المتطبب منابت الحشائش ومختلف العقاقير، ومواضع المعادن ويفهم خواصها ومنافعها ومضارها هذا إلى جانب الإلمام بطبائع البلاد واختلاف أمزجة أهلها ومعرفة ما يلائم كل طبيعة وكل مزاج.

تلك هي المؤهلات التي فرضها القدامى على كل من يتعاطى صناعة التطبيب، ولم يفرقوا بين الصيدلي والطبيب البشري والطبيب البيطري، إذ أن هذا التخصص لم يكن ليخطر ببال السابقين، ولكنه نشأ بعد تطور الحياة وبعد تطوير ما ورثناه من أسلافنا الأولين.

الفصل الثاني

مصَادر الطب

ظهور صناعة الطب وتطورها:

عرفت مما أسلفنا كيف أن العلماء الذين أراحوا للطب قد اختلفوا في تاريخ نشأته، ولكن برغم هذا الاختلاف نستطيع أن ندرك أن الناس لم يلهموا الطب طفرة، ولكنهم تدرجوا فيه خطوة فخطوة.

ولنفرض مثلاً أن إنساناً قد ثقل عليه رأسه، واحمرت عيناه، وظهرت عليه بوادر امتلاء الدموية بأكثر مما تحتمل، وأحس من جراء ذلك ألماً خانقاً، ولم يدر ماذا يعمل ليتخلص من هذا الألم، ولنفرض كذلك أنه قد فاجأه رعاف، وانساب الدم من أنفه فارتاع أول الأمر ثم أعقب ذلك أن سكت عنه الألم، وزال ما كان يشعر به، ثم لنفرض أخيراً أن ظاهرة هذا المرض قد عاودته هو أو أصابت صديقاً، أو أي عزيز عليه، فماذا تظنه فاعلاً؟

نحسب أن الشيء الذي لا نزاع فيه ولا يغيب عن أحد أن هذا الرجل سيعمد إلى أنفه فيخدشه، أو إلى أي عرق فيفصده، ونشير بمثل ذلك على أي مريض يمثل إصابته ليسكن الألم كما سكن في المرة الأولى. ويتطور ذلك بعدئذ، ويتقدم بتطور الإنسان وتقدمه، فيتحول إلى الفصد،

والحجامة، وإلى استخدام العلق الماص للدماء، وتصبح طريقة أخذ الدم باباً من أبواب الطب.

ولنذهب إلى مثل آخر: لنفرض أن شخصاً امتلأ بطنه بالطعام امتلاءً مفرطاً، فتألمت معدته ألماً لا قبل له باحتماله، ثم أذن الله لعلته أن تزول فأخذه قيء شديد، أو إسهال فسكن ألمه وزال وجعه. ثم لنفرض أن داء التخمة قد عاوده فماذا يفعل؟

أليس الذي يتبادر إلى الذهن من أول وهلة أنه لا بد أن يحتال للقيء كأن يدخل إصبعه في حلقه أو نحو ذلك مما يؤدي إلى القيء؟ ثم يتقدم هذا بتقدم الزمن وتقدم الإنسان، فيتم التوصل إلى المادة التي تحدث القيء، ويعرفها الأطباء فيستعملونها عند الاقتضاء، وتصبح مادة مقررة في العلاج.

ولنفرض أن هذه التخمة قد أصابت إنساناً آخر، واشتد به ألمها، وبمحض المصادفة وقعت يده على نبتة ما، فمضغها. فأصيب بإسهال كان سبباً في ذهاب ألمه ثم رأى صديقاً أو قريباً تعرض لمثل هذه التخمة أليس من المنطقي أن يشير على هذا القريب أو ذاك الصديق بأن يستعمل المادة التي سبق أن دفعته المصادفة إلى استعمالها من قبل فخلصته من آلامه؟ ومن الطبيعي أن يتطور ذلك بتطور البشرية فيصبح الملين والمسهل من أبواب الطب.

وإذا فرضنا أن هذا الإسهال قد زاد حتى أضعف الجسم وأصابه بهزال شديد، ثم وقعت يد المصاب به على نبتة أو شيء ما فأكله فسكن الإسهال ثم زال أفلا يكون معنى ذلك أن يدخل في باب الطب عن طريق المصادفة والتجربة علاج التخمة، ثم علاج الإسهال؟

وهل تقف التجربة عند هذا الحد؟

لا شك أن واحداً من الناس يدفعه حب الكشف والاستطلاع إلى أن يتذوق طعم هذه النبتة التي سكنت الإسهال، ولنفرض أنه حين ذاقها وجد طعمها حامضاً قابضاً، ألا يفهم من ذلك أنه لا يخلو الأمر من أن يكون الذي نفعه إما الحموضة، وإما القبض، وإما المزج بينهما بنسبة معينة؟ فإذا عاد فاستعمل شيئاً فيه الحموضة وحدها فلم يسكن ألمه أفلا يتجه ذهنه إلى تجربة القابض أيضاً؟

على أي وجه فالذي يترتب على ذلك هو أن تدخل في الطب قاعدة نفع المادة القابضة، ثم يجيء دور الطبيب وعلمه بخصائص النبات والمعادن ليحصل على المادة الصالحة.

مكان التجربة في الطب:

لم تكن التجربة من أعمدة الطب إبان مولده المبكر فحسب، ولكنها ظلت تلازمه حتى اليوم. وخير مثل لذلك "إدوارد جنر" الذي عرف بلقب طبيب القرية. كان قد سمع في صباه أن من تصيبهم عدوى جدري البقر

يكتسبون مناعة ضد الجدري البشري، وبعد أن صار طبيباً بدأ يجرب هذا عملياً سنة ١٧٦٩؛ إذ لقح طفلاً بقيح بثور جدري البقر، ثم لقحه بعد ذلك بجراثيم الجدري البشري فلم تؤثر فيه؛ إذ كان قد اكتسب المناعة فعلاً. وترتب على نجاح هذه النتيجة أن صار التلقيح ضد الجدري فتحاً جديداً في عالم الطب.

الاهتداء إلى السموم:

كما اهتدى الإنسان إلى ضروب الأدوية والعلاج بالتجارب اهتدى بها أيضاً إلى السموم. ويروي "جالينوس" في كتاب "الأدوية المسهلة" في قصة الاهتداء إلى المواد السامة أن رجلاً اشترى كبداً طازجة من جزار ومضى بها إلى بيته، واضطر إلى مبارحة البيت مسرعاً لقضاء بعض حاجاته قبل أن يضع هذه الكبد على النار فوضعها على أوراق نبات كانت مبسوطة على وجه الأرض، وظن أن رطوبة هذه الأوراق تحفظ الكبد من الفساد، وغاب بمقدار ما قضى حاجته، ثم عاد فوجد الكبد قد ذابت وتحولت إلى دم سائل، فأخذ تلك الأوراق، وبحث عن النبات الذي أخذت منه فلما عرفه، وفطن إلى سره أخذ يصفه لكل من يريد قتل نفسه أو قتل غيره.

واسترسل جالينوس قائلاً: ولقد قبضت على هذا الرجل، وقدمته إلى الحاكم الذي استيقن من أمره، فأمر بقتله، فنصحت للحاكم أن يعصب عيني ذلك الآثم وهو مسوق إلى الموت مخافة أن تقع عينه على ذلك النبات فيرشد غيره إليه قبل أن يموت.

وبهذا ونحوه بدأت السموم تعرف، وبدأ الإنسان ينظم استخدامها ويقول موفق الدين أبو نصر بن أسعد بن الفتح المعروف بابن المطران، الطبيب الذي كان موضع ثقة صلاح الدين الأيوبي ومحل تقديره: "إن النفس الفاضلة المقدرة للخير نظرت فعلمت أنه كما أن الداء فعل فعله، فلا بد أن هناك دواء ينفع العضو المصاب ويقاوم ما حل به، فيبدأ بتجربة دواء وغيره حتى يحصل على ما يدفع الضرر. وفي استخراج الترياق أعظم دليل. على صحة ما ذهبت إليه، فليس الترياق سوى حب الغار والعسل، ثم صار إلى ما صار إليه بعد مدة طويلة نتيجة القياس، ونتيجة صفاء العقول" وقول ابن المطران هذا توسع في قول النبي الكريم عليه السلام "لكل داء دواء إلا الموت".

وكلا القولين: تشجيع لباب الاجتهاد في الطب، وتأييد لما قلناه من قبل في أمر التجربة وأثرها في تقدم العلاج.

صلة الأحلام بإلهام الطب:

لما لصناعة الطب من شأن عظيم كثرت الأقاويل في أول متطبب، وأول واضع لصناعة الطب كما أسلفنا: فبعض المتقدمين يسندون تجاربهم الأولى إلى الأنبياء والأصفياء، فمن اليهود من يقول: إن أول من جاء بالطب هو سيدنا موسى عليه السلام، وفريق آخر من اليهود ينسبون ذلك إلى نبي آخر من أنبيائهم. وبعض المجوس يزعمون أن الذي حمل هذه الصناعة إلى البشر هو نبيهم "زرادشت". ويقول الصابئة: إن بعض أديرتهم كانت تخرج فيها يد بيضاء مكتوب عليها المرض الذي أصاب المريض

المحمول إلى الدير، وكان الدواء يؤخذ على أيدي الكهان القائمين بأمر هذا الدير.

وإلى جانب هؤلاء القائلين بأن الأنبياء والأصفياء والصالحين مصدر الطب وجد آخرون يقولون: إن كثيراً من الأدوية توصل إليها الإنسان بطريق الرؤيا الصادقة.

ويروي جالينوس في كتاب "الفصد" أنه كان غلاماً عرض له ألم في الموضع الذي يتصل فيه الكبد بالحجاب الحاجز، وفي المنام جاء من يأمره – إن أراد الشفاء – أن يفصد العرق الضارب بين السبابة والإبهام. قال جالينوس: ففصدت هذا العرق، وتركت الدم ينزف حتى انقطع من تلقاء نفسه وسكت عني المرض بعد ذلك. ومعنى ذلك أنه حين كبر واشتغل بالطب أخذ الفصد في العلاج مستلهماً ذلك من تلك الرؤيا التي اهتدى بها إلى هذا الدواء.

ومما رواه جالينوس أيضاً في كتاب "حيل البرء" أنه رأى رجلاً في السبعين من عمره قد ورم لسانه، وانتفخ انتفاخاً شديداً حتى ضاق به فمه. وعرض الرجل على جالينوس ليداويه من علته هذه، فوصف له مسهلاً كانت تجارب الطب قد اهتدت إليه، وهو حبوب تتألف من مادة الصبر والسقامونيا وشحم الحنظل، وأشار عليه أن يضع على لسانه بعض الأشياء المبردة. وانتظر جالينوس ليرى ماذا تكون الحال بعد أن يفرغ الجسم ما بداخله ثم يفكر في علاج العضو المريض.

وذهب جالينوس ليعوده في اليوم التالي، وليتعرف حاله فعرض عليه المريض رؤيا رآها في منامه، وخلاصتها أنه رأى من يأمره أن يمسك عصارة نبات الخس في فيه، وأن يكرر ذلك فيبرأ. فأشار عليه جالينوس أن يفعل ذلك، فلما استعمل هذه العصارة أخذ يخف مرضه حتى زال، ولم يعد لسانه يحتاج إلى طب أو دواء.

ومعنى هذا عند أصحاب ذلك الرأي أن بعض ما تقرر في الطب كعلاج منذ أقدم العصور كان مصدره الإلهام الذي جاء عن طريق الأحلام.

ولم يقل السابقون الأولون من أمثال جالينوس بهذا الرأي وحدهم، بل تابعهم فيه كثيرون ممن تأخروا عن زمنهم، فقد روى الطبيب المصري "علي بن رضوان" المتوفى سنة **٤٥٣** هجرية في كتاب له يسمى "التيسير" أنه كان قد اعتل بصره وهو صغير يطلب العلم، وشغل باله بذلك حتى لم تعد تهنأ له الحياة أو يطيب له المقام فيها، فتمثل له في الأحلام أحد المشتغلين بصناعة الطب يأمره أن يكتحل بعصير الورد فعرض هذه الرؤيا على أبيه – وكان يمارس صناعة الطب – ففكر في الأمر ملياً، ثم أشار إليه أن يفعل، ولما نفذ الأمر كما تراءى له في أحلامه زال عنه المرض، وقوي بصره، وأخذ يصف هذا الدواء للناس.

وقد نلتمس لذلك علة يقرها العلم الحديث، وهي أن المرء إذا شغل بأمر ملك عليه كل جوانب نفسه شغل نفسه عقله الباطن ويظل يفكر فيه

ويدبر له فتأتي الأحلام بخلاصة ما فكر فيه وما دبره. وأياً ما كان الأمر فقد سجل الأقدمون أن بعض أنواع الأدوية والعلاج كانت إلهاماً بطريق الأحلام.

أثر المصادفات في الطب:

للمصادفات أثر كبير في كثير مما وصل إلينا من وسائل الحضارة الإنسانية، فكثير من مخترعات عصرنا هذا، والعصور التي سبقته قامت فيه المصادفة بدور كبير، ويكفي أن نشير إلى قصة إسحاق نيوتن والبرتقالة (التفاحة) التي سقطت من الشجرة أمامه وفتحت له باب الكشف عن سر جاذبية الأرض.

وقد لعبت المصادفة أيضاً دورها في الطب، فكثير من المؤرخين يسندون التوصل إلى بعض الأدوية وأساليب العلاج في أول أمرها إلى مجرد الاتفاق ومحض المصادفة، ويروون في ذلك أن "أندروماخس الثاني" – أحد نوابغ الطب في اليونان والذي عاش في زمن الإسكندر الأكبر، وكان رئيس الأطباء بالأردن – يروون أن هو الذي أدخل في الطب أن لحوم الأفاعي إلى أنواع الترياق، وكان ذلك لأسباب رواها هو فقال:

١– كان يعمل عندي في بعض ضياعي رجال يحرثون لي الأرض، وكنت أتردد عليهم لأراقب عملهم، كما كنت أحمل إليهم بين الحين والحين طعاماً وشراباً ليكون هذا الإكرام دافعاً لهم على الإخلاص والإجادة، وجئتهم يوماً بخمر في إناء كان مختوماً بالطين من وقت طويل وفتحوا الإناء

ليشربوا، ورفع أحدهم كوزاً ليغرف به الشراب فراعه أنه قد وجد أفعى قد تهرأ جسدها لطول ما بقيت في الشراب، فأمسكوا جميعاً عن شربه، وعافته أنفسهم، وهموا بإلقائه على الأرض غير أن واحداً منهم قال: إن في داخل القرية رجلاً مجذوماً يتمنى الموت فلنقدم له هذا الشراب ليستريح من آلامه، فوافقوا جميعاً على ذلك، ونفذوا الفكرة. وحين شرب الرجل كمية منه أخذ جسمه ينتفخ وزاد الانتفاخ إلى درجة تثير الرعب، إلا أنه في غداة اليوم الثاني بدأ جلده يتساقط، وتظهر تحته طبقة من الجلد الأحمر، وأخذ هذا الجلد يقوى شيئاً فشيئاً، وانتهى الأمر بأن زال المرض، وعاش الرجل طويلاً وهو معافى.

٢- وقال أيضاً: كان لي أخ قد عينه الملك لتحديد ضياعه، ولمسح الأرض، وكان كثيراً ما يسلك طرقاً وعرة رديئة. وخرج مرة في يوم شديد الحر يرتاد أحد هذه الأمكنة الوعرة فأصابه تعب وإجهاد فنام نوماً عميقاً وقد مد ذراعيه من شدة الحر، وإذا بأفعى تنهشه في يده فانتبه فزعاً مذعوراً، ثم ما لبث أن سقط على الأرض، وحسب أنه لا بد ميت، لذلك كتب وصيته واسمه ودل على بيته وعلق ذلك المكتوب على الشجرة التي كان قد نام تحتها، على أمل أن يمر إنسان فيرى ذلك، وينقل الخبر إلى أهله، واستسلم للموت واشتد به العطش فزحف إلى فضلة ماء كانت حول أصل الشجرة التي نام تحتها فشرب كثيراً من هذا الماء، فأخذ ألمه يسكن، وبدأ يحس أن شبح الموت يبتعد عنه، ونشط بعد قليل كأن لم تكن به علة. وأراد أن يعرف سر هذا الماء فأخذ عوداً من شجرة وجعل يقلب

به الطين الذي تحت الماء فوجد أفعوين يظهر أنهما كانتا قد اقتتلتا حتى وقعتا معاً في الماء، وتهرأ جسدهما فيه.

وقال "أندروماخس" لقد فهمت من هذا أن أثر سم نهشة الأفعى قد زال بتأثير سم جسم الأفعى المتهرئ، وقد انتقل هذا إلى فلسفة اليونان التي اقتبس منها الشاعر العربي (أبو نواس) قوله "وداوني بالتي كانت هي الداء".

٣- وقال أندروماخس أيضاً: كان للملك غلام شرير أصاب الناس منه بلاء كثير. ولم يستطيعوا الانتصاف منه لأنه كان مقرباً من الملك، والملك عظيم الثقة فيه، ولما ضاقوا به ذرعاً رسموا خطة للقضاء عليه، وخلاصة هذه الخطة أن يسحقوا درهمين من الأفيون ويخلطوهما بطعامه وشرابه فإذا تناول ذلك يموت سريعاً بدون آثار تدل على موت جنائي كالجروح ونحوها.

ونفَّذوا ما عزموا عليه ودسوا له الأفيون في الشراب فما كاد يتناوله حتى فقد كل حس، وخمد كل نفس، فلم يشكوا في أنه قد مات فأقفلوا دونه الباب، وختموا عليه لئلا يفتح، ووكلوا بعض الخدم لحراسته ومضوا ليحملوا الخبر إلى الملك.

وشاء القدر أنهم بعد أن انصرفوا أقبلت حية مذعورة تجري في فزع، ووجدت في عقب الباب منفذاً تدخل منه إلى البيت المغلق، وجرى الخدم يحاولون منعها حرصاً على جسد الميت الذي وكلت إليهم حراسته،

ولكنهم لم يتمكنوا من منعها ولم يستطيعوا فتح الباب لأنه كان مغلقاً ومختوماً. وإذ هم في حيرتهم سمعوا صياح ذاك الذي عرفوا أنه ميت وأنهم وقفوا لحراسه جسده، وأدركهم شيء من الفزع والرعب، غير أن قيم البستان استجمع شجاعته وحطم الباب، وخف إليه فوجده معافى ليس به علة.

هذه التجارب التي جاءت بمحض المصادفات هي التي حملت اليوناني "أندروماخس" على إضافة لحم الثعابين إلى الترياق. ولما ارتقى العقل البشري وارتقى معه الطب أصبحت السموم مادة لا بد منها في علاج بعض الأمراض، ولا تزال تحتل مكاناً في الصيدليات. ويلاحظ أن المكان المعد لحفظ السموم في الصيدلية يزين في كل الصيدليات أو أكثرها بصورة ثعبانين أحدهما ملتف على الآخر، وقد يكون ذلك رمزاً مستوحى من قصة أندروماخس التي تحدث فيها عن الحيتين اللتين كانتا سبباً في شفاء أخيه. وعلى كل فمؤدى ذلك أن المصادفات لها أثر في الطب كأثرها في كثير من المخترعات.

العرب وعلاج السم:

ليس لدينا دليل قاطع على أن العرب في العصر الجاهلي عرفوا علاج السم بالسم، كما عرفه أهل اليونان، غير أننا إذا استخدمنا المنطق، وأحسنا الاستقراء لاح لنا أنهم لا بد أن يكونوا قد عرفوا ذلك.

إن من أمثال العرب المتوارثة قولهم: "لا يفل الحديد إلا الحديد" وقولهم: "إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً" وقولهم: "لكل شيء آفة من جنسه" وأبو نواس الشاعر العربي حين قال: "داوني بالتي كانت هي الداء" لم يكن متأثراً بالفلسفة اليونانية فحسب، ولكنه كان كذلك متأثراً بالثقافة العربية. ومن العلاج البدائي الذي كان شائعاً عند العرب وما زالت آثاره باقية في قرانا أن عضة أي حيوان كالكلب ونحوه تعالج بأن يؤخذ من شعر هذا الكلب أو القط الذي أحدث العض، ثم يحرق هذا الشعر ويذر رماده على آثار العضة. ألا يكون هذا وذاك قرينة على أن العرب عالجوا السم بالسم على نحو ما فعل اليونان، وإن لم يكن لدينا نص قاطع بذلك؟

إن الثعابين والحيات تكثر حيث يكثر النخيل والعشب، وجزيرة العرب كثيرة النخيل والعشب فلا بد فيها كثير من الثعابين والحيات ولا بد أن كثيرين منهم تعرضوا لأذاها، ولا بد أنهم عالجوا أنفسهم من الإصابة بسمها، وإن كنا لا نملك الدليل القاطع على ذلك.

أثر الحيوان على صناعة الطب:

منذ وجد الإنسان أخذ يتأمل ما حوله، ويفيد من كل ما يمكن الإفادة منه، ويتعلم ما يستطيع أن يتعلمه. وقد سجل القرآن على الإنسان كيف يتعلم حفر القبر، ومواراة جسد الميت من الطير في قصة ابني آدم إذا قال تعالى في سورة المائدة:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ).

هذه القصة كما رواها القرآن الكريم تصور لنا كيف قتل الأخ أخاه، ووقف حائراً أمام منظر الجسد المسجى أمامه، وكيف اشتدت به الحيرة، وزاد الألم حتى تراءى له غرابان يقتتلان، ثم انتصر أحدهما على الآخر فقتله، ثم أخذ ينبش الأرض حتى أحدث حفرة دفع إليها جسد الغراب الميت ثم أخذ يهيل التراب عليه حتى أخفاه، عندئذ صاح الإنسان: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي؟.. وإذن فقد تعلم الإنسان من الطير والحيوان.

ويقول مؤرخو الطب: إن الإنسان قد أفاد مما شاهده من الحيوان، واقتدى ببعض أفعاله التي ألهمه الله إياها، ويسوقون لذلك شواهد كثيرة:

١- تروي كتب تاريخ الطب أن جالينوس كان أول من استخدم الحقنة الشرجية، وقد نسب جالينوس استخدامه لهذه الحقنة إلى طائر

يعرف باسم "أيبس" قال جالينوس: إن هذا الطائر شره لا يترك شيئاً يصل إليه من اللحوم إلا التهمه، وتجتمع الأخلاط الرديئة في بطنه فيحتبس، فإذا اشتد عليه الإمساك وآذاه ذهب إلى البحر فأخذ بمنقاره من مائه، ثم أدخله في دبره، ويكرر ذلك حتى يزول الاحتباس، وتنزل الأخلاط فيعود إلى التغذي بطعامه الذي ألفه.

ويقول الدكتور "بول غليونجي" الطبيب العربي المعاصر: إن الطائر الذي يعرف باسم "أيبس" هو "أبو قردان" الذي تراه كثيراً في الحقول يلتقط الديدان، غير أن هذا الطائر ليس شرها على نحو ما وصفه جالينوس، فلا بد أنه كانت هناك فصيلة منه في اليونان فيها تلك الصفات التي ذكرها جالينوس.

٢- ويقولون: إن "البازي" وهو الطائر المعروف الذي يستخدم في الصيد إذا أصيب بمرض في جوفه يصيد طائراً يعرف في اليونان باسم "ذريفوس" ثم يأكل من كبده فيسكن ألمه.

٣- ويقولون: إن "السنانير" تعمد في فصل الربيع إلى أكل الحشائش، فإذا لم تجدها أكلت من خوص المكانس، وقالوا: إنها تلتهم ما ليس من طبيعتها أكله لتتقيأ الأخلاط المختلفة التي تكون قد تجمعت في جوفها، وتظل كذلك حتى تتحسن صحتها، وتعود إلى مألوف حالها. وتنبه القدماء لهذا، وكان ذلك من العوامل التي دعت الأطباء إلى استخدام المقيئ كوسيلة من وسائل العلاج.

٤- ويقولون: إن "السنانير" إذا أكلت حيواناً ساماً، أو حشرة سامة كالعقرب أو الثعبان، أو إذا نالها أذى منها فإنها تقصد إلى مواضع الزيت فتنال منه بقدر ما تستطيع فتسكت عنها سورة السم.

٥- لاحظوا أن الماعز البرية في جزيرة أقريطش "كريت" إذا أصيبت بسهم وعلق بجسمها فإنها تعمد إلى نوع من النبات فتأكله. فيسقط السهم الذي علق بجسمها دون أن يصيبها بأذى.

٦- يقولون: إن الطائر المعروف باسم "اللقلق" يبني عشه فوق القباب ونحوها من الأماكن المرتفعة، وله عدو من الطيور يتعمد أن يأتي إلى عشه ويكسر البيض الذي فيه. واهتدى اللقلق إلى نبتة إذا شمها الطائر المعادي له فإنه يغمى عليه، فيأتي اللقلق بهذه النبتة ويضعها تحت بيضه، ليأمن شر عدوه على نحو ما يفعل الناس الآن؛ إذ يضعون في أبراج الحمام كميات من "الشيح" وقاية لصغاره من الثعبان الذي ينفر من المكان الذي يشم فيه رائحة الشيح.

٧- روى أحد القدامى أنه رأى طائر "الحباري" يقاتل حية، ثم ينهزم عنها، ويذهب إلى بقلة يتناول شيئاً من ورقها، ثم يعود إلى قتال الحية.

قال الرجل: وانتهزت فرصة اشتباك الحباري مع الحية في القتال ونزعت البقلة، فلما عاد الحباري وبحث عنها فلم يجدها سقط ميتاً، فعلمت أن هذه البقلة دواء لسم الحية الذي يصيبه.

وروى "الرازي" طبيب الإسلام والفيلسوف العربي ما يلي:

(أ) "الخطاف" إذا وقع بفراخه مرض اليرقان، فإنه يجيء بنوع من الحجر عرف باسم "حجر اليرقان" وهو حجر أبيض يميزه هذا الطائر من بين سائر الأحجار، فإذا جاء به وجعله في عشه يبرأ أبناؤه. قال الرازي: وعرف الناس بذلك، فإذا أراد أحدهم أن يحصل على هذا الحجر، فإنه يطلي صغار الخطاف بالزعفران، فإذا رأى صفرتها ظن أنها أصيبت باليرقان، فيأتي لها بذلك الحجر، فيستولي عليه الإنسان، ويعلقه على المصاب باليرقان فيبرأ.

(ب) أنثى "العقاب" إذا تعسر خروج البيض من جوفها، فإن الذكر يطير ويأتي بحجر يعرف باسم "القلقل" لأنه إذا حرك سمعت بداخله قلقلة، فإذا كسر لا يوجد بداخله شيء فإذا وضع الحجر في العش سهل خروج البيض الذي كان متعسراً. وعرف الناس ذلك باسم "حجر العقاب" وصاروا يستعملونه في عسر الولادة.

(ج) الحيات تظلم أعينهن لكمونهن شتاءً في جوف الأرض المظلم، فإذا خرجن من مكامنهن وقت اشتداد الحر طلبن نوعاً معيناً من النبات هو "الرازيانج" أي "الشمر" وأمررن عيونهن عليه فتصلح ويعود إليها النور. قال الرازي: ولما لاحظ الناس جربوا هذا النبات واتخذوا منه دواءً.

وخلاصة كل هذا إجماع العلماء والمؤرخين على أن الطير والحيوان كان لهما أثر واضح فيما اهتدى إليه الإنسان من طب ودواء. وقولهم

هذا، يستفاد منه أن الطب كان مشاعاً بين الأمم كلها لأن قوة الملاحظة لم يخص الله بها شعباً دون شعب، وإن كانت تختلف قوة وضعفاً في الأفراد، وفي الشعوب.

الفصل الثالث

تدوين الطب في كتب

ثبت تاريخياً أن أقدم ما وجد مكتوباً في الطب خلفه قدماء المصريين في لفائف من البردي كتبت قبل عهد هومبروس الشاعر الإغريقي الذي تنسب إليه ملحمة الإلياذة، وملحمة الأوديسة، وهما كما يقال أقدم الآثار الأدبية المكتوبة. ومع أن لفائف البردي التي سجل فيها بعض طب المصريين أقدم من الإلياذة ومن الأوديسة فإن الدكتور "بول غليونجي" يقول: "إما أن تلك البرديات منقولة عن نصوص أقدم منها فهذا لا مراء فيه، ويتضح ذلك من عبارات عدة وردت فيها ترجع أجزاء منها إلى مؤلفات سابقة لها". ويقصد الدكتور غليونجي أن برديات الطب المصري أقدم من الإلياذة بكثير، وأهم البرديات الطبية التي كشف عنها:

١– لفافة أودين سميث.

٢– لفافة أبرس.

٣– لفافة كاهون.

٤– لفافة هرست.

٥– لفافة برلين.

٦– لفافة شستربيتى.

٧– لفافة لندن.

٨– لفافة كارلز برج.

ويقول الدكتور (جولس جويار) الفرنسي في كتابه (الطب عند الفراعنة) الذي ترجمه الدكتور أنطون زكري: (إن ورقة أبرس اكتشفت في

مدينة طيبة سنة ١٨٧٣ في حرز طوله واحد وعشرون متراً وعرضه ثمانون سم واشتراها الدكتور أبرس. أما تاريخها فيرجع إلى سنة ١٥٠٠ قبل ميلاد المسيح عليه السلام وفيها ضوابط علمية لأمراض العيون، وأمراض النساء، وفيها فصول عن خواص العقاقير والنباتات، وما يعالج به لدغ الحيات، ولسع العقرب والحشرات).

وقد انتقل تدوين الطب إلى اليونان فوضعت فيه كتب كثيرة ولاحظ الباحثون في تاريخ الطب أن كتاب "الفصول" لأبقراط رأس أطباء اليونان قد اشتمل على كثير مما هو مسجل في برديات قدماء المصريين مما يدل على أنه اقتبس منهم، وذلك مما يؤيد أن العلوم انتقلت أولاً من الشرق إلى الغرب. ثم أخذ علم الطب، وغيره من العلوم، ينتقل من الغرب إلى الشرق إبان ازدهار عصر الإسلام، وأول من عني بنقل طب اليونان إلى العربية خالد بن يزيد بن معاوية فقد كان طبيباً عالماً بالكيمياء ووجه عناية كبيرة إلى نقل طب اليونان إلى العربية، ثم ازدهرت الترجمة في عهد الرشيد والمأمون في العصر العباسي فترجمت إلى العربية عشرات من كتب الطب اليونانية ومنها:

كتاب الكي لأفلاطون، كتاب علل العين وعلاجها، كتاب الحميات والديدان التي تتولد في البطن، كتاب البرسام للإسكندروس الذي عاش قبل جالينوس، كتاب تشريح الأعضاء لأورماسيوس، كتاب الأدوية المستعملة، كتاب السبعين مقالة، كتاب عهد أبقراط، كتاب الكسر، كتاب الأمراض الحادة، كتاب الماء والهواء، كتاب طبيعة الإنسان، كتاب أبقراط

في الأدوية والمياه والبلدان، كتاب أوجاع الكلى والمثانة وأوجاع الحصى، كتاب جالينوس في الأدوية المفردة، كتاب المقالات الخمس في التشريح، كتاب العلل والأمراض، كتاب التشريح الكبير، كتاب اختلاف التشريح، كتاب تشريح الحيوان، كتاب النبض الكبير، كتاب وجع النقرس، كتاب تشريح الرحم، كتاب حركات الصدر والرئة، كتاب تركيب الأدوية، كتاب قوى الأغذية..

جمع العرب المسلمون هذه الكتب ومئات غيرها وترجموها، وقيل إن المأمون كان يكافئ المترجم بوزن كتابه ذهباً، وانتقلت النهضة من الغرب إلى الشرق فبقيت لدى العرب علوم اليونان وكتبهم، وبدأ الظلام ينتشر في الغرب شيئاً فشيئاً حتى ساد ذلك الظلام وعم الركود.

ثم جاءت فترة أخرى في أوربا؛ فأخذت العلوم – ومنها الطب – تعود مرة أخرى من الشرق إلى الغرب، ومن هنا نشأ المذهب الذي يقول: إن العلوم انتقلت من الشرق إلى اليونان، ثم انتقلت من اليونان إلى العرب، ثم أخذها الأوربيون عن العرب، ثم عاد العرب يأخذونها عن الأوروبيين.

كل هذا الذي أوردناه اعتمدنا فيه على ما سجله قدماء المؤرخين للطب مثل ابن أبي أصيبعة، وابن القفطي وأمثالهما وهو يتيح لنا أن نقول إن صناعة الطب تنبه لها الإنسان منذ كان؛ وحصل بالإلهام، وقوة الملاحظة على قوانين ومبادئ تمت بالدراسة والاستقصاء؛ ولم يختص بهذا

موضع ولا وطن دون آخر؛ ولم ينفرد به قوم وحدهم فكان الطب في الهند، والصين، والحبشة، وفارس، واليونان، والعرب، وإنما تنوعت المداوة، واختلفت طرقها باختلاف الأجواء والطباع.

ونقل تلك الصناعة في وطن، وتكثر في غيره بحسب المناعة ضد الأمراض أو الاستعداد لها؛ فما نصيب العرب من هذه الصناعة؟.. هذا ما سنفصله فيما يلي.

الفصل الرابع

ماضي العَرب في صناعة الطب

تعرضنا من قبل للمبادئ العامة التي أجمع العلماء والمؤرخون منذ أقدم العصور على أنها أساس صناعة الطب، وإذا سلمنا بصحة هذه المبادئ عرفنا أن العرب كان لهم نصيب وافر في هذه الصناعة منذ عهودهم الأول، وإن فاتنا الدليل المادي على صحة ما نقول أسعفنا الدليل المنطقي الذي يسلم بصحته كل ذي لب سليم.

هناك إجماع بين العلماء والمؤرخين على أن التجارب أهم أسس صناعة الطب، وهناك إجماع مثله على أن حياة العرب في جاهليتهم كانت تقوم على التجارب، والنتيجة المنطقية لهذا، أو الجواب السليم لهذه المعادلة أنهم عرفوا الطب وبرعوا فيه.

إن العرب بالتجارب عرفوا مواقع النجوم، وعرفوا حركاتها، وعرفوا وقت هبوب الريح، وعرفوا الغيم الجهام والسحابة الممطرة، بل كانوا يقدرون أين يمطر، ويسارعون إلى المكان الذي ستصب فيه ماءها حتى لا يسبقهم غيرهم إلى الانتفاع بها، وعرفوا بالتجارب آثار أقدام الرجل والمرأة، والشيخ والشاب.. عرفوا كل ذلك وكثيراً غيره بالتجارب، فهل يعقل أن يتركوا الخبرة بالطب عن طريق هذه التجارب، وصحتهم ألزم لهم من كل شيء؟.

لقد وصفوا في التاريخ بأنهم عاشوا قبائل متفرقة، تعتمد على سواعد أبنائها وجلدهم في قتال من يعاديهم، فالصحة ألزم ما يلزمهم، لذلك فلا بد أنهم عرفوا الطب وتفننوا فيه.

إن حياة البداوة التي عانوها في الجاهلية كانت تحتاج إلى الكفاح المستمر، والصحة ألزم شيء لهذا الكفاح، ويترتب على هذا أنهم إن لم يكونوا قد حققوا كثيراً من أساليب الطب العلاجي فلا بد أنهم أدركوا بفطرتهم، وبتجربتهم كثيراً من أساليب الطب الوقائي، ولئن كان المتطببون قليلين عندهم، ولقد كان السبب هو أن العلل كانت لا تعتريهم إلا قليلاً بسبب أسلوب معيشتهم، وبيئتهم.

ولقد أثبت التاريخ أن الكلدانيين وكهنة بابل كانوا من أقدم من اشتهر بالطب، وعنهم أخذت أكثر الأمم القديمة مثل العرب، والفينيقيين، والآشوريين، والمصريين. ثم تناول اليونان كل ذلك فأتقنوه، ونسقوه. وكان العرب على صلة وثيقة بكل هذه الشعوب ثم أضافوا ما اقتبسوه إلى تجاربهم الخاصة.

ومن المسائل المقررة لدى الباحثين في علوم الديانات أن معجزة كل رسول تكون من نوع ما يمتاز به من بعث إليهم. ومعجزات المسيح عليه السلام كانت كلها في الطب: (وأبرئ الأكمة، والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله).

والأرض المقدسة التي قامت فيها رسالة المسيح لم تكن بمعزل عن البلاد العربية، وإنما هي متصلة بها مكملة لها، وإذن فلا بد أن العرب كانوا على دراية بفن الطب.

ويقول القفطي في كتاب أخبار الحكماء: "إن الأمم التي عنيت بالعلوم هي: الفرس، والهنود، والكلدانيون، واليونانيون، وأهل مصر، والعرب، والعبرانيون. كل هذه الأمم عنيت بالعلوم واستخراجها، وباقي الأمم لم تعن بشيء من ذلك، ولا ظهر لها شيء منه".

وكل هذا الذي ذكرناه ينصرف إلى عصور الجاهلية الأولى. أمّا في العصور الإسلامية فسيأتي ما يدل على أن العرب برعوا في الطب، وقرنوا بحوثهم القيمة فيه ببحوثهم في الكيمياء وخواص المعادن والنبات حتى كانوا أول من قسموا المواد الكيميائية إلى مواد نباتية وحيوانية ومعدنية، وكانوا أول من درسوا السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال، وأول من وصفوا حامض الكبريتيك حتى قال المستشرق (جوستاف ليبون): (لولا ما وصل إليه العرب من نتائج واكتشافات ما تحقق للافوازييه ما تحقق له من نصر في معرفة عناصر الماء والهواء).

وكان العرب من أوائل الأمم التي أنشأت المستشفيات للعلاج وأمدوها بجميع المعدات اللازمة للمرضى من أسرة وأدوات طبية، وكانوا يسعفون الجرحى والغرقى، وهم أول من ربط الشريان لوقف الدم بخيوط من الحرير أو من أمعاء الحيوان. وحسبنا هنا هذه الإشارة الخاطفة وفيما يلي إيضاح وتفصيل لهذا الإجمال.

أساليب التطبيب عند العرب

كان للتطبيب عند العرب، وعند أمثالهم من الأمم القديمة طريقتان:

(أ) الكهان والعرافون.

(ب) العلاج الحقيقي.

وكان كهان العرب –كالعهد بالكهان القدامى في كل بقاع الأرض – يعالجون بالسحر والرقى، وكان الطب محصوراً فيهم في أكثر جهات العالم، وقد دل على صدق ذلك ما أوثر عن قدماء المصريين، وكذلك كان للكهان والعرافين شأن عند العرب في الجاهلية، بل ظل شأنهم قائماً إلى حين مجيء الإسلام. استمع إلى عروة بن خزام حيث يقول:

جعلت لعراف اليمامة حكمة ... وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا: نعم نشفي من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدراني

فما تركا من حكمة يعلمانها ... ولا سلوة إلا بها سقياني

ويقول في موضع آخر:

أقول لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

وأكثر ما كانوا يلجئون إلى الكهان والعرافين حين يشف أحدهم الحب، أو يبرح به الوجد، أو تنزل به علة باطنية، أو مرض داخلي تختل به

قوى الجسم، ويصاب بالضعف والهزال فينسبون ذلك إلى فعل الجن، أو غضب الآلهة. وكانوا يؤمنون بالجن ولهم عقائد عجيبة في تأثيرها في الجسم ولذلك حين خاطبهم القرآن على قدر عقولهم كما تقتضي البلاغة الصادقة شبه لهم قيام آكل الربا يوم البعث بقيام الممسوس المصروع الذي خالطه الشيطان وصرعه، فقال الله تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ).

أما الأطباء المعالجون فكانوا منذ أقدم العصور يعالجون بالعقاقير على نحو ما كان يفعل المصريون وغيرهم، وكانت لهم دراية بالجراحة، ومعرفة بأسماء الأعضاء الظاهرة الباطنة وأوصافها، وكانوا إذا أرادوا قطع عضو فسد ولا صلاح للجسد إلا ببتره، أو أرادوا التخلص من غدة زائدة أحموا شفرة بالنار لتطهيرها، ثم قطعوا بها ذلك العضو أو تلك الزائدة، على نحو ما فعلوا بصخر بن عمرو بن الشريد الذي خلدته أخته برثائها له.

وقصة ذلك أن صخرا كان قد غزا بني أسد بن خزيمة وغنم منهم، ولكن أصابته طعنة من ربيعة بن ثور، وكانت الطعنة نجلاء دخل بسببها حلق من الدرع داخل جسمه وعولج الجرح علاجاً سطحياً حتى اندمل على الحلق. وقيل: أنه ذهب مع صديق له إلى خمَّار يهودي ليشربا عنده خمراً، فحسدهما اليهودي على ما يتمتعان به من جمال وجلال، فسقاهما كأساً عاد بعدها صخر شديد العلة، وظهر في جنبه نتوء يشبه الكبد، ولزم الفراش وطال زمن علته، ومر به طبيب فأراه ما به فنصح له الطبيب بإجراء جراحة، ومناه بالشفاء بعدها، وكان صخر يخشى عاقبة هذه

الجراحة، غير أنه سمع زوجته تجيب صديقة لها جاءت تسأل عن صحته بقولها: (لا هو حي فيرجى، ولا ميت فينعى، لقد ذقنا منه الأمرين!) وشق على صخر أن يسمع زوجته متبرمة به وقارن بينها وبين أمه التي تمنحه من عطفها وقت شدته أكثر مما تمنحه حال رخائه فقال:

أرى أم تمـــــــل عيـــــــادتي ... وملـــت ســـليمى مضـــجعي ومكـــاني

ومـا كنـت أخشـى أكـون جنـازة ... عليــــك، ومـــــن يغـــــتر بالحـــــدثان؟

أهـم بأمـر الحـزم لـو أسـتطيعه ... وقـــد حيـــل بـــين العـــير[1] والنـــزوان

لعمري لقد نبهت من كان نائماً ... وأسمعـــت مـــن كانـــت لـــه أذنان

وأي امــــرئ بــــأم حلية [2] ... فـــلا عـــاش إلا في شـــقا وهـــوان

واستدعى صخر الطبيب الذي كان قد عرض عليه الجراحة ليجربها له، ولكن بعض أصفيائه أشفقوا عليه من عاقبتها فأبى إلا أن تجري له، فأحموا له شفرة، ثم قطعوا الزائدة، ولكن كانت منيته فيها.

وقد كان العرب في مداواتهم يعتمدون على العقاقير البسيطة وعلى الأشربة وأخصها العسل، وكانوا يعتمدون على الجراحة، والكي، وقد جاء في أمثالهم (آخر الدواء الكي). وعرفوا بالتجارب ما قرره الطب الحديث من أن الزواج من الآباء أجدى على الصحة وعلى الذرية من الزواج من

---

(١) الحمار الوحشي، والشطر كله مثل يضرب للضعف.

(٢) زوجة.

الأقارب. وجاء النبي ﷺ يقرر ذلك، إذ روي عنه أنه قال: (اغتربوا لا تضووا[٣]) أي تزوجوا من غير الأقارب وقاية لأبنائكم من الضعف.

ويروى أيضاً أن عمر بن الخطاب ﷺ نظر إلى قوم من قريش قد صغرت أجسامهم فقال لهم: "ما لكم صغرتم؟" قالوا: "قربت أمهاتنا من آبائنا" قال: "صدقتم؛ اغتربوا فتزوجوا بالبعيدات فأنجبوا".

والشاعر العربي يقول في مدح رجل.

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى؛ وقد يضوي رديد القرائب[٤]

والطب الحديث، ووقائع الحياة يؤيدان ما ذهب إليه العرب من أقدم عصورهم.

---

(٣) تضعف أجسامكم.

(٤) الابن المولود من أم وأب بينهما قرابة قريبة.

العرب والطب البيطري

إذا لم يكن العرب أول الأمم التي مارست الطب البيطري فهم على الأقل في مقدمة الأمم التي مارست هذا النوع من الطب إذ كان للحيوان – وبخاصة الحصان والجمل – شأن أي شأن في حياتهم. وقد عرفوا علاج الإبل التي يصيبها داء الجرب؛ لهذا ترى النابغة الذبياني يقول في اعتذاره للنعمان:

فــلا تتركــني بالوعيــد كــأنني إلى النـاس مطلـي بـه القـار[٥] أجـرب

ويستفاد من قوله هذا أن العرب كانوا يدهنون الجمل الذي أصابه الجرب بالقار، ويعزلونه عن غيره، وأحياناً كانوا يكوون السليم وقاية له من العدوى، ولهذا نرى شاعرهم يقول:

لكلفتــني ذنــب امـرئ وتركتــه كـذي العر[٦] يكـوي غيره وهـو رائـع

وقد ظل ذلك كذلك في الإسلام؛ لهذا نسمع الشاعر المحب كثير بن عبد الرحمن يناجي عزة التي شهر باسمها فيقول:

ألا ليتنــا يا عــز مــن غــير ريبــة بعــيران نرعــى في الخــلاء ونعــزب[٧]

كـلانا بـه عـر، فمـن يـرنا يقـل علـى حسـنها جـرباء تعـدي وأجـرب

---

(٥) القطران.

(٦) الجرب.

(٧) تبعد.

إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله عليـنا فما ننفك نرمي ونضرب

إنه يتمنى لنفسه ولمعشوقته أن يصابا بالجرب ليعتزلهما الناس، ويدعوهما في خلوة معاً، وإن تكن السيدة سكينة بنت الحسين في ندوتها الأدبية قد عابت ذوقه الأدبي فيما تمنى لنفسه ولمحبوبته؛ فالذي يعنينا أننا نستمد من قوله أن العرب عرفوا العدوى، وعرفوا عزل المصاب، بل لقد أسرفوا في الخوف من العدوى إسرافاً شديداً كاد يوقف نشاطهم ويودي بعملهم، لذلك أراد النبي صلى الله عليه وسلّم أن يكافح هذا الإسراف حتى لا يتسلط الوهم على الناس، فقال: "لا عدوى، ولا طيرة، ولا فأل".

الحجر الصحي عند العرب:

عزل الجمل المصاب على الوضع الذي أسلفناه صورة مصغرة للحجر الصحي، وقد وضع العرب منذ الجاهلية قواعد هذا الحجر، ثم أكملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين ظهر طاعون في أثناء خلافته، فأمر كل بلد حل به هذا الطاعون ألا يخرج منه أحد أو يدخل إليه أحد، فكان هذا أول (حجر صحي) كامل في العالم، وبعد ارتقاء العقل البشري أخذت به كل الشعوب المستنيرة.

العرب والعلاج النفساني

لسنا نغالي إذا قلنا: إن العرب منذ جاهليتهم فكروا في العلاج النفساني، وحسبنا في ذلك أن نورد قصة المثل العربي الذي يقول (أتيه من فقيد ثقيف) وقصة ذلك أن أخوين من قبيلة كانا على أحسن ما يكون عليه أخوان من صدق المحبة، وحسن الوفاء، وتزوج أحدهما من قبيلة بني كنة، ثم دعته ضرورة الحياة أن يسافر إلى مكان بعيد، وأن يترك زوجته في رعاية أخيه، فأخذ يتعهدها كل يوم بنفسه، وكانت من أحسن أهل زمنها وجهاً، فذهبت بقلب هذا الأخ وأضناه حبها، وأخذت قوته تضمحل حتى عجز عن المشي ثم زاد به الضنى حتى عجز عن القعود. وقدم أخوه من سفره فساءه ما رأى من حاله، وسأله عما به فقال: ما أجد شيئاً غير الضعف، فاستدعى له أخوه الحارث بن كلدة طبيب العرب، فلما حضر وفحصه لم يجد به علة من مرض جسماني، وأدرك أنه من سبب نفساني يخفيه في سره، فدعاه إخلاصه لفنه، وحبه لمهنته أن يقف على هذا السر عسى أن يكشف من ورائه جديداً في الطب. واعتزم أمراً أخذ في تنفيذه، وذلك أنه دعا بخمر وفت فيها خبزاً، ثم أطعمه هذا الثريد وأتبع ذلك شربة من الخمر أيضاً سقاه إياها فتحرك، وأنغض[8] رأسه، ورفع صوته منشداً:

ألمـــا بي علـــى الأبيـــا ... ت بالخيـــــف[9] نزرهنـــــــه
غـــــــزال ثمَّ يحتـــــــل ... بهـــــا دور بـــــــني كنـــــــه

---

(٨) حرك.

(٩) اسم مكان

غـــزال أحـــور العينيـــ ن في منطقـــــه غُنـــــه

فعرف من ذلك أن به داء الحب، فأعاد إليه الخمر ليعرف تلك التي أضناه حبها، فلما سقاه كأساً أخرى عاد ينشد:

أيهـــا الجـــيرة أســـلموا وقفـــوا كـــي تســـلموا

خرجـــت مزنـــة مـــن الـــ ـــبحر ريا تحمحـــم

هـــي مـــا كنـــتي، وتـــز عـــم أني لهـــا حـــم

عندئذ ظهر ما كان مستوراً، وأيقن الطبيب حقيقة علته، وأسر إلى أخيه بحقيقة ما به، فقال له أخوه مؤثراً عافيته على زوجته "يا أخي هي طالق، فتزوجها" فقال المريض "وهي كذلك طالق ساعة أتزوجها"! ثم عاد إليه شيء من العقل، ومن القوى، ففارق الطائف بما فيها من نعمة ونعيم، وهام في البراري، فما عرف عنه شيء بعد ذلك، أما أخوه فمكث بعده أياماً ثم مات.

ولهذه القصة دلالات منها.

أ- كان في العرب أطباء متخصصون منذ العصر الجاهلي.

ب- كانوا إلى جانب عنايتهم بفحص الجسم يبحثون الحالات النفسية.

ج- كانوا مخلصين لفنهم.

ما وصل إلينا من آثار العرب الطبية

قد يقال: إذا كان للعرب مثل هذا الماضي الذي نشيد به فلم لم يصل إلينا من طبهم، أو من خير أطبائهم مثل ما وصل إلينا من طب اليونان، والفرس، والهند، ومصر؟

ونجد الجواب ماثلاً في الآراء التالية:

١- الإجماع منعقد على أن العرب في الجاهلية كانوا أميين، وقد سجل عليه القرآن الكريم ذلك في قوله: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) ولا تجتمع الأمية والتأليف والتدوين.

٢- كانت البداوة غالبة عليهم، وتفرقهم في أنحاء الوطن العربي وعدم استقرارهم في مكان معين من أسباب فقدان كثير من آثارهم وأخبارهم إلا ما خلده شعرهم وأقله هو الذي وصل إلينا.

٣- أهل الحضر منهم كاليمن وقريش شغلتهم أعمالهم بالزراعة والتجارة والرحلات التجارية، فلم يخلفوا لنا آثاراً مكتوبة وإن كان كثير من المؤرخين للطب يذكرون اليمن ضمن البلاد التي برعت في الطب من أقدم العصور.

٤- كانوا بسبب أميتهم يعتمدون على الرواية والرواة، وإذا صلحت الرواية لحفظ الشعر أو الخطب أو الأمثال فإنها لا تصلح لحفظ الطب.

٥- ربما كان لهم شيء مدون على نحو ما دونت محاورة الحارث ابن كلدة طبيب العرب "سيأتي ذكرها"، وربما سجل لهم شيء في العصر

الأموي وأوائل العصر العباسي، ولكنه قد ذهب بذهاب الكتب التي فقدت أثناء نكبة بغداد على يد التتار، وقد أثبت التاريخ أن آلافاً مؤلفة من الكتب قد أغرقت أو أحرقت.

يضاف إلى ذلك ما نكبت به المكتبة العربية في الأندلس؛ إذ تعرضت آلاف مؤلفة من أمهات الكتب للإحراق والإغراق، وما سلم بعد ذلك تشتت كثير منه في أنحاء أوروبا، وما زلنا بين الحين والحين نعثر على مخطوط عربي في إحدى المكتبات الأوروبية مما لم يصل إلينا علمه وإن كان ربما وصل إلينا اسمه. ويؤيد ما نذهب إليه من أنه كان للعرب في الجاهلية وأوائل الإسلام آثار ذهبت بذهاب مكتبة بغداد – أننا نرى الجاحظ الذي عاش قبل اجتياح بغداد يقول في كتاب الحيوان:

"لولا ما أودعت لنا الأوائل كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، ما حسن حظنا من الحكمة، وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا".

ألسنا نفهم من قول الجاحظ هذا – أن عصره كان مسبوقاً بعصر زاخر بالتأليف بالرغم مما يقال من أن التأليف بدأ في العصر العباسي؟ وأين يا ترى تلك المؤلفات التي يشير إليها الجاحظ في قوله؟ لقد ألف الجاحظ نحو مائتي كتاب ثم يقول: "ينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من

قبلنا منا"، أي أن له أسوة بمؤلفين سبقوه فمن هم؟ وما مؤلفاتهم؟ وأين هي؟.

وفي موضع آخر من كتاب الحيوان يقول الجاحظ أيضاً مشيراً إلى شيء أقدم من الكتاب على النحو المألوف فيقول: "كانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ونقشاً في الحجارة وحلقة مركبة في البنيان. فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان تاريخاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند وعلى باب مأرب، وعلى الركن المشقر، وعلى الأبلق الفرد، وعلى باب الرها، وكانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر وتبعيداً من النسيان".

ثم يؤيد الجاحظ رأيه هذا بقول الحارث بن حلزة في شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذي المجاز، وما ... قدم فيه العهود والكفلاء

حذر الجو والتعدي، وهل ... ينقص ما في المهارق الأهواء

والمهارق هي كتب الدين وكتب العهود والمواثيق والأمان.

ثم يقول الجاحظ أيضاً إشارة إلى كثرة ما خلف من سبقوه:

"وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الطب والحساب".

وكل هذا يؤخذ منه أن العرب كانت لهم كتب، وكانت لهم آثار من بينها "كتب الطب والحساب" ولكنها ذهبت فيما تعرض له العرب مما لم تتعرض لمثله أمة أخرى كالهند أو الفرس أو اليونان؛ فليس بدعاً إذن أن تقل معلوماتنا عن أطباء العرب في الجاهلية وأوائل الإسلام، وألا نعرف شيئاً يقينياً عن أساليب تطبيبهم.

لقد ورد في بعض الآثار أنه كان من حذاق أطبائهم رجل من قبيلة "تيم الرباب" يقال له "حذيم" اشتهر بالطب، وبرع فيه حتى صار مضرب المثل، وفيه يقول أوس بن حجر أستاذ زهير بن أبي سلمى:

"فهل لكم فيها إلى فإنني ... بصير بما أعيا النطاسي حذيماً"

ومع صفات حذيم التي جعلت كبير شعراء العصر يسميه "النطاسي" فإننا لا نعرف شيئاً عنه، ولا عمن عاصره أو سبقه من الأطباء.

وإذن فقد كان للعرب طب، وكان فيهم أطباء، وكانت لهم أساليب في العلاج، ولكن كل ذلك لم يصل إلينا خبره بفعل ما تعرضت له البلاد العربية مما لم تتعرض لمثله بلاد غيرها.

قلة أطباء العرب في الجاهلية:

كان في عرب الجاهلية كثير من الحكماء الذين يضمنون حكمهم ما يصون العقل والبدن، فقد قيل لأعرابي مثلاً: لم لا تشرب الخمر؟ فقال: لا أشرب ما يذهب عقلي. وهؤلاء الحكماء يقومون مقام الأطباء الوقائيين في عصرنا، أما الأطباء المعالجون فربما كانوا قلة في العرب، لأن قلة الأطباء وكثرتهم ترجع إلى حال الشعب من صحة أو مرض. والعرب في جاهليتهم لم يكونوا معرضين لكثير من الأمراض، وسر ذلك: درايتهم الوقائية، وبعدهم عن الترف الذي يعتبر مجلبة للأمراض، وقلة الخيرات التي تجعلهم معتدلين في الطعام والشراب، وقد التزموا ذلك عن حكمة أو عن اضطرار.

ورسول الله ﷺ، وهو الحد الفاصل بين الجاهلية والإسلام، أهدى إليه المقوقس عظيم القبط في مصر جارية هي السيدة مارية القبطية، وأرسل معها بغلة وطبيبا، وقد قبل النبي الهدية إلا أنه رد الطبيب، وبعث مع رده كتاباً تضمن أهم قواعد الصحة: إذ علل عدم الحاجة إلى الطبيب بقوله: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع" فمعنى ذلك أن التزامنا تلك اللحظة يباعد بيننا وبين الأمراض، ويغنينا عن الأطباء والعلاج.

وتأكيداً لهذا يقول النبي ﷺ في مقام آخر: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لهوائه" ويقول أيضاً: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء".

لذلك نقول استنتاجاً: إن التزام جانب الحكمة قلل الأمراض فقل الأطباء. ولكن إذا رجعنا من جانب آخر إلى دراسة استعداد العرب الفطري، وإلى كثرة تجاربهم وإلى اتصالاتهم الكثيرة بمن حولهم من الأمم التي مارست الطب، وإلى ما رواه الجاحظ – وهو الراوية الثبت – من كثرة مؤلفات السابقين في الطب والحساب، إذا رجعنا إلى هذا كله أمكن أن نستنتج أيضاً أنه كان فيهم كثير من الأطباء، ولكن خبر هؤلاء الأطباء طوي عنا، وذهب مع ما ذهب من معالم تاريخ الجاهلية.

فلنأخذ بالأحوط ونقول: إن الحمية، وعدم الإكثار من الطعام كانا من شيم العرب إن لم يكونا التزاماً لجانب الحكمة فقد كانا في كثير من الأحيان اضطراراً بحكم العيش، ومن هنا قلت الأمراض فقل الأطباء. ولكن لما شاع الترف فيهم بعد الإسلام، وكثر الخير لديهم تعرضوا للأمراض، فكثر الأطباء حتى لقد روي أنه كان في بغداد وحدها أيام الخليفة المعتصم العباسي نحو ستمائة طبيب.

ما عرفه عرب الجاهلية من أساليب الطب

أشرنا من قبل إلى أن الجهات المحيطة بجزيرة العرب قد اشتهرت بالطب، وأشرنا إلى المعجزات التي جاء بها المسيح عليه السلام، وقلنا إنها تدل على تفوق أهل فلسطين في الطب. ونضيف إلى ذلك الآن أن القرآن الكريم نزل مخاطباً أهل الجاهلية، وقد جاء فيه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) فنحن – بطريق القرآن الكريم – نستطيع أن نعرف كثيراً من حالات العرب في الجاهلية، حتى اللغة والشعر يمكن أن نصل في أمرهما إلى حكم صالح بطريق القرآن الكريم، كما يقول الدكتور طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي".

وقد جاء في القرآن الكريم في سورة الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ).

ويقول أيضاً في سورة (المؤمنين): (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ).

ولنا أن نفهم من ذلك أن العرب في جاهليتهم عرفوا تطور الجنين كآخر ما وصل إليه علم الطب في العصر الحديث، عرفوا ذلك ولم تكن

الأشعة التي يكشف بها عن باطن الجسم قد عرفت، فلا بد أنهم عرفوا عن ظاهر الجسم أكثر مما عرفوا عن باطنه.

وفيما وصل إلينا من آثار الجاهلية أنهم أجادوا أنواعاً من الجراحة كتلك التي سبق أن أشرنا إليها في قصة صخر أخي الخنساء، وقد برعوا في عملية خصي الرجال والحيوان حتى لقد كان عامتهم يقومون بها تقليداً لأطبائهم، وإن تعرض كثير ممن يقوم العامة بخصيهم للتلف والهلاك كما حدث لأبي حنبض الضبابي الذي روت قصته كتب الأدب والتاريخ: وذلك أن أحد بني عبس كان قد أسره وأودعه يهودياً من تيماء، وأخذت زوجة اليهودي تستميل الأسير إليها، وتغريه بنفسها حتى نجحت في استهوائه، ودخل اليهودي بيته يوماً على غرة فوجد الأسير مضاجعاً زوجته، فعاقبه على ذلك بأن خصاه، ولم يحسن الخصي، فمات أبو حنبض وجاء ابنه بعدئذ يطالب بديته.

وكان الطبيب يستخدم في الخصي حديدة مرهفة محماة على النار، وقد سجلت كتب اللغة أنها تسمى: الحاسمة أو القاطعة.

وفي اللغة تعبيرات تدل على قدم هذه العملية، وعلى التفنن بها والبراعة فيها: فمما تضمنته المعاجم في هذه العملية ما رواه الجاحظ عن أبي زيد في هذه المادة: "خصيت الدابة أخصيها خصاء، ووجأتها أجؤها وجاء .. أما الخصاء فهو أن تسل الخصيتان، وأما الوجاء فهو أن توجأ العروق والخصيتان على حالهما. ويقال ملست الخصيتين أملسهما ملساً،

ومتنتهما أمتنهما متناً، وذلك أن تشق عنهما الصفن فتنسلهما بعروقهما، والصفن جلدة الخصيتين"..

هذه العملية على أنها دقيقة، وعلى أنها في موضع شديد الحساسية، وعلى أنها لذلك تحتاج إلى براعة فائقة، قد زاولها العرب منذ أقدم عصورهم كما تشير إلى ذلك كتب اللغة.

وظلت هذه العملية كثيرة الشيوع إلى مجيء الإسلام، ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص ينهى عن حذف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها.

* * *

ولا بد أنهم عرفوا قيمة تزويد المرضى بالدم النقي على نحو ما نفعل نحن الآن مع من نزفت الجروح دماءهم، لذلك ترى من أمثالهم: ودماء الملوك شفاء من داء الكلب، ومعنى ذلك أنهم كانوا يرون أن دماء الملوك والأشراف تشفي من عضة الكلب وتشفي من الجنون.

وهكذا قالت الزباء ملكة تدمر وهي تقتل جزيمة الأبرش قاتل أبيها، وقد فصدت راهشيه وتركت دمه ينزف في طست من الذهب وتقول: صونوا دم الملك، إن دماء الملوك شفاء من داء الكلب. ولسنا نعرف كيف كانوا يزودون المريض بهذا الدم.

* * *

والعرب في جاهليتهم أيضاً عرفوا العدوى، وتبينوا سريع الانتقال منها، ومن أمثالهم: "هو أعدى من الجرب، وقولهم "هو أعدى من الثؤباء"، وقد أخذ أبو العلاء المعري من هذا المثل قوله:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد   بعدوى فما أعدتني الثؤباء

أي أنه كان ذا حصانة ضد عدوى التثاؤب، وهو يشير بهذا إلى سلوكه سبيلاً غير سبيل من يتزوجون، ويأكلون لحم الحيوان وألبانها ومشتقاتها، وعسل النحل والبيض وشابهه.

ومما يدل على معرفتهم بأنواع الأمراض، وتوقيهم مما تكون عدواه خطيرة وسريعة ما ترويه كتب الأدب من قصة الشاعر الأموي عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بـ "وضَّاح اليمن" وهو – وإن يكن شاعراً إسلامياً – قريب عهد بالجاهلية، وشديد التأثر بالموروث عنها، قيل إنه كان يهوى امرأة تسمى "روضة" وله فيها شعر جميل، منه قوله:

يا روضـــة الوضـــاح قـــد   عنّيـــت وضـــاح الـــيمن
فاســقي خليلــك مــن شــرا   ب لم يكـــــدره الـــــدرن

ومنه قوله:

ألا يا "روض" قـد عـذبت قلبي   فأصـــبح مـــن تـــذكركم كئيبـــا
ورتقــني هــواك وكنــت جلــداً   وأبـــدى في مفـــارقي المشـــيبا
أمـا ينسـيك "روضـة" شـط دار   ولا قـــرب إذا كانـــت قريبـــا

وروي من أخبار هذا العاشق أنه كان في سفر مع أصحابه فبينما هو يسير استوقفهم، وعدل عنهم ساعة، ثم عاد إليهم وهو يبكي، فسألوه عما يبكيه فقال: عدلت إلى حيث تقيم "روضة" وهي مصابة بالجذام وجعلت مع المجذومين، وأخرجت من بلدها، ولقيتها فأعطيتها ما تصلح به شأنها.

ويتضح من هذا أن العرب كانوا قد خصصوا معازل للمجذومين على نحو ما هو سائد في العصر الحديث، وأنهم أيضاً عرفوا العدوى وتوقوا المصابين بأمراض معدية.

ويقول صاعد الأندلسي في كتاب "طبقات الأمم":

"كانت العرب في صدر الإسلام لا تعنى إلا بلغتها، ولا تعنى بشيء من العلم حاشا صناعة الطب فإنها كانت "موجودة" عند أفراد العرب غير منكرة من جماهيرهم".

ومن أطباء العرب من كان ينهى عن دنو الطامث (المرأة التي اعتراها الحيض) من إناء اللبن، ويعللون ذلك أنها ما دامت حائضاً فإنها تعرض لها رائحة ذات حدة، وبخار غليظ يعرض اللبن للفساد. وكانوا يعللون العين والحسد تعليلاً علمياً فحواه أن الإنسان إذا رأى شيئاً أعجبه خرجت حرارة من عينيه أصابت هذا الشيء فأثرت فيه. وتخصص بعضهم في البيطرة، وقد جاء في كتاب "المعارف" لابن قتيبة: كان من المتخصصين في البيطرة، العاص بن وائل، وهو والد عمرو بن العاص الذي قاد الجيوش لفتح مصر.

وعرفوا من أمراض الجمال العر أو الجرب، وكانوا – كما أسلفنا – يعالجونه بالقار، وكانوا يكوون السليم للوقاية على نحو ما يطعم السليم عندنا بلقاح الجدري، أو يحقن بلقاح الدفتريا أو نحوها، وفي هذا يقول النابغة الذبياني وهو يعتذر إلى النعمان:

لكلفتني ذنب امرئ وتركته　　　كذي العر يكوي غيره وهو زائع

وكانوا يعزلون الجمل المصاب اتقاء عدواه، وكان عامتهم يعرفون العر أو الجرب بسقوط الذباب عليه.

وكان فقراء العرب وضعفاؤهم يعمدون إلى حيلة تحفظ عليهم جِمالهم من أن يستولي عليها ذو سلطان جائر، وذلك بأن يعمدوا إلى شيء من الدبس (العسل الأسود) يضيفونه إلى خضخاض (لبن نزعت مادته الدهنية) ويطلون به جسم البعير، فإذا وجد الذباب ريح الدبس تساقط على البعير، فينفر منه ذو السلطان والظالم.

وعرفوا الوجى، وهو مرض يصيب حوافر أرجل الخيل، فيعجزها عن المشي إلا بكثير من العناء والمشقة، وقد تضمن شعر الأعشى ذكر الوحي في غزله بفتاته هريرة إذ شبه مشيتها التي فيها التثني والتمايل والتراقص بمشية الحصان الذي أصيب بالوجى وفوق ذلك يمشي في أرض موحلة، وذلك قوله:

ودع هريـرة إن الركـب مرتحـل   وهـل تطيـق وداعـاً أيهـا الرجـل؟
غراء، فرعاء، مصقول عوارضها   تمشى الهوينى كما يمشي الوجى الوحل
كـأن مشـيتها مـن بيـت جارتها   مـر السـحابة لا ريـث ولا عجـل

وعرفوا أخطار الذباب واتخذوا منه الوقاية، وذلك بأن يضعوا في القدر كمأة (نبتة يعرفونها) فلا يقربها الذباب أو يموت على نحو ما نفعل الآن برش المواد الكيميائية المطهرة (فليت ونحوه). وكانوا يطهرون بيوتهم من سام أبرص (البرص) بوضع الزعفران داخل البيوت.

وكانوا يعالجون من لسعة حشرة سامة من نحو العقرب بأن يفصد في موضع اللسعة، ثم يمص الدم قبل أن يتفشى السم في الدم. ويشترطون فيمن يمص الدم أن يكون فمه ولسانه سليمين من أي جرح صغر أم كبر خوفاً من تسرب الدم إلى الجرح أو يحجمونه فيقوم المحجم مقام مص الدم بالفم.

ثم عرفوا بعد ذلك نبتة إذا عالجوا بها الملسوع حسنت حالته على الفور.

وحاولوا تفتيت الحصاة التي تكون في الكليتين أو المثانة وذلك بأشربة يتناولها المريض، ولم يرد بيان بالأجزاء التي يتألف منها هذا الشراب.

وكانوا يحرقون وبر الإبل، ويتخذون منه ذرورا لوقف الدم السائل من الجروح.

وكانوا يعالجون المصاب بارتعاش عارض بأن يطعموه دماغ أرنب يرى بعد أن يشوى. وحين ترجمت كتب أبقراط اليوناني الذي يسمونه أبا الطب وجد أنه يصف العلاج نفسه.

وكانوا يكافحون السرطان بدهن موضعه بإنفحة الأرنب. وكانوا يعالجون البهق والكلف بدهان من دم الأرنب فيزيلهما.

وكانوا أيضاً يدهنون بدم الأرنب مواضع أسنان الصبي، فيسرع نبتها ويعالجون به الشعر الذي ينبت في باطن جفن العين، وكما عرفوا خصائص الأرنب في العلاج عرفوا خصائص حيوانات أخرى، وخصائص نباتات ومعادن شتى.

وكانوا يستعملون العلق ليقوم مقام الحجامة في امتصاص الدم الزائد عن حاجة الجسم، والذي يخشى أن تكون زيادته سبباً في التعرض لخطر جسيم. وقد امتدح النبي ﷺ هذا العلاج فقال: "خير الدواء العلق والحجامة".

وكانوا يعالجون عسر الولادة بخلط جزء من شحم كبش مع جزء من شحم بقر، وقليل من ماء الكراث، وتتحمل به المرأة فتسهل ولادها.

وكانوا يعالجون الباسور بدهنه بزيت الزيتون، وأقر النبي صلى الله عليه وسلم هذا العلاج.

وكانوا إذا انتشر وباء يتوقونه بأكل الثوم، وشرب الخمر، وترك بطون الأودية وسكن اليفاع(١٠) على نحو ما فعل يهود خيبر حين انتشر فيها الوباء فسلموا بذلك منه.

وعرفوا علاج الأسنان واللثة، وشدوا الأسنان بالذهب، وكان عثمان بن عفان ﷺ يشد أسنانه بالذهب، وظل كذلك بعد أن أسلم، ومما يدل على عنايتهم بطب الأسنان ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني في رواية عن إسحاق الموصلي أن عمر بن أبي ربيعة زار معشوقته "الثريا" التي أكثر من ترديد اسمها في شعره، وكان معه صديق يصاحبه، فلما كشفت "الثريا" الستر وأرادت أن تبرز إليه رأت صاحبه فرجعت، فقال لها: إنه ليس ممن أحتشمه أو أخفي عنه شيئاً، وضحك ضحكاً طويلاً أثارها، وكانت تتختم في أصابعها العشر فأخرجت إليه فضربته بظهر كفها على فمه، فأصابت الخواتيم ثنيتيه العليين فقلقلتا، وتحركتا، وكادتا تسقطان، فقدم البصرة فعولجتا فثبتتا، ولكنهما اسودتا.

وعرفوا كيف ينقون الجوف من الدم الذي يتجمع فيه نتيجة نزيف داخلي، وقد روي أن هلال بن الأسعر أحد شعراء بني أمية كان قد ضرب رجلاً مستجيراً ببني جعدة فتبعه فرسان منهم ليقبضوا عليه، فأخذوا يرمونه بالحجارة ويضربونه بالعصى حتى دقوا ضلعين من أضلاعه، ومزقوا كبده، ثم حملوه مقيداً على جمل وركبت معه أخته "جماء" وكانت تأتيه بالمغرة ليشربها "والمغرة سائل أحمر يتخذ في الصباغة، ولكن شربها يطلق الدم من البطن"

---

(١٠) مرتفعات.

فما زال هلال يشرب من يد أخته حتى تنقى جوفه من الدم، وواتته القوة، فتخلص من قيوده وفر من يد آسريه.

* * *

هذا بعض ما تيسر استقصاؤه عن حال الطب في العصر الجاهلي، وإلى أن جاء الإسلام كان العلاج قد كثر، وكان المعالجون قد زادوا حتى أصبح الناس يتوهمون لأقل وعكة أنهم مرضى، وأسرفوا في تعاطي الأدوية ولذلك نهاهم النبي ﷺ عن الإسراف في تعاطيها، بل لقد نهى عن الدواء ما دام الداء محتملاً، ووضع لهم عمر بن الخطاب ﷺ الحد الفاصل بين الصحة والمرض فقال: "لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم" أي علامة الصحة أن تكونوا قادرين على استعمال القوس في رمي النبال، وأن تكونوا قادرين على الوثوب فوق ظهور الخيل.

ومن قول حكمائهم "الدواء في البدن مثل الصابون في الثوب ينقيه ويبليه" أي أن الدواء يعمل عمل الصابون، فهو من جهة ينقي الجسم، ومن جهة أخرى يقرب إليه الفناء.

ولا يخفي ما تضمنه قول النبي ﷺ. وقول عمر ﷺ، وقول الحكيم من معنى مسلم به، فالأدوية على أنها تكافح العلة وتخفف الألم رواسب في الجسم تعمل مع مضي الوقت عملها في الغدد والأعضاء الداخلية، فتقرب الشيخوخة، وقد تؤدي إلى تسمم يكون فيه هلاك الإنسان.

إن العرب في جاهليتهم، وفي أوائل الإسلام عرفوا الطب البشري وعرفوا البيطرة، وعانى صناعة الطب كثير منهم وبرعوا فيها بحذقهم وتجاربهم وأخذهم عن غيرهم من أبناء الأمم الأخرى، ونستدل على ذلك بكثرة ما نجده في لغتهم من أسماء الأمراض، وأسماء الأدوية، وأسماء الأعضاء الظاهرة والباطنة، وأجزائها الدقيقة. وكان – مثل غيرهم من الأمم الأخرى – فيهم الكهنة الذين يعالجون بالعزائم والتمائم والرقي، وفيهم الأطباء الذين يعالجون بالجراحة والعقاقير والحجامة والكي.

وخالد بن يزيد بن معاوية الأموي كان أول من نقل العلوم الطبية إلى اللغة العربية.

* * *

لقد كانت تشيع في العرب خرافات كالتي تشيع في اليونان؛ فمن ذلك مثلاً أنهم يتشابهون في تعليل وجود بعض الكواكب مثل الزهرة، والمريخ، والمشترى من أنها آلهة أو أنصاف آلهة صعدت إلى السماء واستقرت فيها كواكب تمنح السعد والنحس وتؤثر في الحياة والأحياء.

ومن ذلك أيضاً أنهم ينسبون عمرو بن يربوع إلى السعلاة[١١] التي أقامت في بني تميم حتى ولدت، فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى حنت إليهم، وطارت نحوهم.

---

(١١) واحدة من الجن.

ومن ذلك زعمهم أن جرهما كانت من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم؛ إذ كان الملك – في رأيهم – إذا عصى ربه في السماء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل وفي طبيعته كما صنع بهاروت وماروت. ولما عصى أحد الملائكة ربه أهبطه إلى الأرض في صورة رجل فتزوج أم جرهم وأولدها إياه، كما ينسب اليونانيون نحو ذلك إلى الإله زيوس وغيره من آلهتهم. وكانوا يزعمون أن بلقيس، وأن الإسكندر ذا القرنين كانا من هذا التركيب.

وإذا كان العرب في جاهليتهم قد شابهوا اليونان حتى في خرافاتهم أفليس الأولى بهم أن يكونوا قد شابهوهم في طبهم؟

على أن إجماع مؤرخي الطب على وجوده في الكلدانيين والسريانيين يتيح لنا أن نقول: إنه كما وجد فيهم وجد في العرب على السواء: يقول صاعد الأندلسي في كتاب طبقات الأمم: "إن الكلدانيين وهم السريانيون والبابليون كانت بلادهم هي العراق والجزيرة التي ما بين دجلة والفرات المعروفة بديار ربيعة ومضر، وكذلك الشام وجزيرة العرب التي ما بين الحجاز ونجد وتهامة والغور واليمن كلها ما بين زبيد إلى صنعاء والعروض والشحر وحضرموت وعمان وغيرها من بلاد العرب، وكانت هذه البلاد واحدة، وكان ملكها واحداً ولسانها واحداً وهو اللسان السرياني القديم، ثم تفرعت اللغة العربية من السريانية وغلبت العرب على المنطقة المعروفة بجزيرة العرب، وعلى ديار ربيعة ومضر".

ويقول أيضاً: "إن العرب كانت في صدر الإسلام لا تعنى بشيء من العلم إلا بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها".

كل هذا يفهم منه أنه كان للطب شأن في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

الفصل الخامس

تعريف ببعض أطباء الجاهلية وصدر الإسلام

أسلفنا أن التاريخ قد استطاع أن يرشدنا إلى بعض الأدواء التي عرفها العرب وعرفوا علاجها، وأن يرشدنا إلى بعض أساليب العلاج، ولكنه لم يعرفنا بكثير من أطبائهم. أشهر من عرفنا من أطبائهم:

١ـ الحارث بن كلدة.

أصله من ثقيف، ونشأ في الطائف، وأقام في بلاد فارس زمناً فأضاف إلى ثقافته العربية في الطب ثقافة فارس، وبرع في معرفة الداء والدواء حتى شهر باسم "طبيب العرب"، وكان معاصراً للنعمان بن المنذر، وامتد به العمر حتى مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ومع أنه أسلم ولم يحسن إسلامه، فإن عدم صدق إسلامه لم يمنع المسلمين من احترام فنه، بل إن النبي ﷺ نفسه كان يشير على بعض صحابته إذا اشتد بهم المرض أن يعرضوا أنفسهم عليه.

ويروى أنه لما حضرته الوفاة اجتمع إليه الناس فقالوا: مرنا بأمر تنتهي إليه بعدك فقال: "لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا ناضجة ولا يعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء".

ومن أقواله المأثورة: "لا تشرب الدواء إلا بضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد مثله".

ومن كلا مه الحكيم: "من سره البقاء – ولا بقاء – فليباكر الغداء، وليعجل العشاء، وليخفف الرداء، وليقلل الجماع".

محاورة بينه وبين كسرى أنو شروان

كانت بلاد الحيرة (واقعة) تحت نفوذ الفرس عسكرياً وسياسياً، وقد ظلت كذلك حتى خلصها المسلمون بفتح فارس والقضاء على دولة الأكاسرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﵁. وإبان سيطرة الفرس عليها حدث أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة زار كسرى أنو شروان ملك فارس، وسمع النعمان من كسرى تهجماً على العرب وانتقاصاً من قدرهم وتفضيلاً للأمم الأخرى عليهم، ورد النعمان على كسرى بقدر ما تسمح الدبلوماسية أن يرد على ملك متبوع، ولما انصرف من لدنه أخذ يستعيد الحديث، ويبدئ فيه ويعيد، ويدرسه، ويبحث مضمونه، ويقلب كل عبارة على كل وجوهها، وخشى أن يكون كسرى يضمر للعرب شيئاً يمس حريتهم أو يهدد مستقبل وطنهم، لذلك جمع إليهم رؤساء العشائر وحكماء العرب، وأسر إليهم بما ساوره، وأوعز إليهم أن يفدوا على كسرى فينتزعوا من ذهنه سوء تقديره للعرب.

وسافرت الوفود، وفي الطليعة الحارث بن كلدة، ودارت بين كسرى وأفراد الوفود محاورات سجلتها كتب الأدب، وفصلها ابن عبد ربه في كتاب "العقد الفريد".

ويعنينيا في هذه المحاورات ما دار بين كسرى والحارث بن كلدة؛ فإنه وثيقة طبية ذات شأن، سجلت في ديوان فارس قبل الإسلام، وتداولها الأطباء بعد ذلك في مختلف العصور وعني بها المستشرقون بعد اتصال الشرق والغرب في العصر الحديث، وترجمت إلى كثير من اللغات.

نص المحاورة:

لما أذن للحارث بن كلدة على كسرى وقف أمامه منتصباً، وكان الناس آنئذ يدخلون على الملوك ركعاً أو سجداً، ودار بينهما الحديث التالي:

كسرى: من أنت؟

الحارث: أنا الحارث بن كلدة الثقفي.

كسرى: ما صناعتك؟

الحارث: الطب.

كسرى: أعربي أنت؟

الحارث: من صميمها وبحبوحة دارها.

كسرى: وما تصنع العرب بالطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟

الحارث: أيها الملك، إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ويقيم عوجها، ويسوس أبدانها، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه، ويميز موضع دائه، ويحترز من الأدواء بحسن سياسته لنفسه. أيها الملك.. إن الله تعالى قسم العقل بين عباده كقسمة الرزق فيهم فمنهم مثر ومعدم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم. ذلك تقدير العزيز العليم.

فأعجب كسرى بكلامه وقال:

فما الذي تحمد من أخلاقها، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؟

الحارث: أيها الملك، لها أنفس سخية، وقلوب جريئة، ولغة نصيحة، وألسن بليغة، وأمثال وأنساب صحيحة. يمرق الكلام من أفواههم مروق السهام من أوتارها: أعذب من الماء، وألين من الهواء يطعمون الطعام في الجدب، ويضربون السهام في الحرب، عزهم لا يرام، وجارهم لا يضام، ولا يقرون بفضل للأنام، ما خلا الملك الهمام الذي لا يقاس به أحد من الأنام.

ويروى أن كسرى كان متكئاً فاستوى جالساً، وظهر البشر على وجهه، وقال لجلسائه: إني وجدته راجحاً، ولقومه مادحاً، وبفضلهم ناطقاً، وبما يورده من لفظه صادقاً. وكذا العاقل من أحكمته التجارب..

ثم التفت إلى الحارث الذي كان لا يزال واقفاً وأمره بالجلوس فجلس، ثم دار الحوار بينهما حول الطب:

كسرى: كيف بصرك بالطب؟

الحارث: ناهيك؟

كسرى: ما أصل الطب؟

الحارث: الأزم[١٢].

كسرى: وما الأزم؟

الحارث: ضبط الشفتين، والرفق باليدين.

كسرى: أصبت، فما الداء الدوى؟

الحارث: إدخال الطعام على الطعام هو الذي يفني البرية بل يهلك السباع في جوف البرية.

---

(١٢) الأزم: الحمية، ويقولون "أصل كل دواء الأزم".

كسرى: أصبت؛ فما الجمرة التي تصطلي منها الأدواء؟

الحارث: هي التخمة إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت.

كسرى: صدقت. فما قولك في الحجامة؟

الحارث: في نقصان الهلال، في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة، والعروق ساكنة بسرور يفاجئك، وهم يباعدك.

كسرى: وما تقول في دخول الحمام؟

الحارث: لا تدخله شبعان.

كسرى: بم تنصح من يريد الاحتفاظ برونق الشباب؟

الحارث: أقول له: لا تغش أهلك وأنت سكران، ولا تقم بالليل وأنت عريان، ولا تقعد على الطعام وأنت غضبان، وارفق بنفسك يكن أرخى لك، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك.

كسرى: ما تقول في الدواء؟

الحارث: ما لزمتك الصحة فاجتنبه، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه؛ فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت، وإن تركت خربت.

كسرى: وما تقول في الشراب؟

الحارث: أطيبه أهنؤه، وأرقه أمرؤه، وأعذبه أشهاه. لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً، ويثير عليك من الأدواء أنواعاً.

كسرى: وأي اللحمان أفضل؟

الحارث: الضأن الفتيّ. والقديد المالح مهلك للبدن، واجتنب لحم الجزور والبقر.

كسرى: فما تقول في الفواكه؟

الحارث: كلها في وقت إقبالها، وحين أوانها. واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها. وأفضل الفواكه الرمان والأترج وأفضل الرياحين الورد والبنفسج، وأفضل البقول الهندباء والخس.

كسرى: ما تقول في شرب الماء؟

الحارث: هو حياة البدن، وبه قوامه. ينفع ما شرب منه بقدر وشربه بعد النور ضرر.

كسرى: فما طعمه؟

الحارث: لا يوهم له طعم، إلا أنه مشتق من الحياة.

كسرى: فما لونه؟

الحارث: اشتبه على الأنظار لونه لأنه يحكي لون كل شيء يكون فيه.

كسرى: أخبرني عن أصل الإنسان: ما هو؟

الحارث: أصل الإنسان من حيث شرب الماء (يعني رأسه).

كسرى: فما هذا النور الذي في العينين؟

الحارث: إنه مركب من ثلاثة أشياء: فالبياض شحم، والسواد ماء، والناظر ريح.

كسرى: على كم جبلة طبع هذا البدن؟

الحارث: يقوم البدن على أربع طبائع: المرة السوداء وهي باردة يابسة، والمرة الصفراء وهي حارة يابسة، والدم هو حار رطب، والبلغم وهو بارد رطب.

كسرى: ولم لم يكن من طبع واحد؟

الحارث: لو خلق من طبع واحد لكان لا يأكل ولا يشرب ولا يمرض ولا يهلك.

كسرى: أجمل لي الحار والبارد إجمالاً جامعاً.

الحارث: كل حلو حار وكل حامض بارد، وكل حريف حار، وكل مر معتدل، وفي المر حار وبارد.

كسرى: ما أفضل ما تعالج به المرة الصفراء؟

الحارث: كل بارد رطب.

كسرى: وما علاج المرة السوداء؟

الحارث: كل حار رطب.

كسرى: وما علاج البلغم؟

الحارث: كل حار يابس.

كسرى: وما علاج الدم؟

الحارث: إخراجه إذا زاد، وتطفئته بالأشياء الباردة اليابسة إذا سخن.

كسرى: وما علاج الرياح؟

الحارث: الحقن اللينة، والأدهان الحارة اللينة.

كسرى: أفتأمر بالحقنة؟

الحارث: نعم إنها تنقي الجوف، وتكسح الأدواء عنه. وقد تردد في الناس قول الحكماء: العجب لمن يحتقن كيف يهرم، أو يعدم الولد؛ على أن الجاهل أشد الجهل من أكل ما قد عرف مضرته، ومن يؤثر شهوته على راحة بدنه.

كسرى: ما الحمية؟

الحارث: الاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح مساحتها، ويسد مسامها.

ويلوح أنه عند هذا الحد كان كسرى قد استنفد ما خطر بباله، وما وعاه من أسئلة الطب، وقد وجد من الطبيب العربي جواباً حاضراً، ورداً باهراً فأراد أن يذهب به مذهباً آخر فيه شيء من الإحراج، وفيه تعرف بمزاج ذلك العربي الذي كان يرى فيه وفي أمثاله من سوء الرأي ما أبداه للنعمان وما جعل مغبة ذلك ويوفد الوفود. لقد خرج به عن دائرة الطب الصريح إلى دائرة النساء، ولكن طبيبنا الحكيم جمع في إجابته بين الأدب والطب النافع.

كسرى: فما تقول في النساء؟

الحارث: كثرة غشيانهن رديء، وإياك والمرأة المسنة فإنها مثل الشن البالي تجذب قوتك، وتسقم بدنك. ماؤها قاتل، ونفسها موت عاجل،

تأخذ منك الكل ولا تعطيك البعض، والشابة ماؤها عذب زلال، فوها بارد، وريقها عذب، وريحها طيب، وتزيدك قوة إلى قوتك، ونشاطاً إلى نشاطك.

كسرى: فأيهن يكون القلب إليها أميل والعين برؤيتها أسر؟

الحارث: إذا أصبتها فالمديدة القامة، العظيمة الهامة، واسعة الجبين، كحلاء، لعساء، صافية الحد، لطيفة الخصر والقدمين، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد، هذه هي التي تفرح بقربها وتسرك الخلوة معها..

فضحك كسرى ضحكاً شديداً متواصلاً حتى اختلجت كتفاه، ثم قال: لله درك من أعرابي؛ لقد أعطيت علماً، وخصصت فطنة وفهماً.

ثم أحسن صلته، وأمر بتدوين ما دار بينهما، وكان هذا التدوين سر بقاء هذا السجل الطبي الباهر حتى وصل إلينا، وحتى تداولته الأيدي في كل مكان، وبكل لغة.

* * *

٢- النضر بن الحارث بن كلدة:

كان كأبيه علماً وفضلاً، وقد أخذ الطب عن أبيه، وسافر إلى بلاد فارس وغيرها، وعاشر الأحبار والكهان في كل مكان ارتاده وحصل بذلك

كثيراً من الطب والحكمة والفلسفة، غير أنه انضم في أول ظهور الإسلام إلى سفيان بن حرب في مكافحة الدين الجديد، وكان من أشد الناس حسداً للنبي ﷺ وعداوة له مع أنه ابن خالته. وقد ظن أن ما برع فيه من الطب والحكمة والفلسفة يجعله أولى بالنبوة من مُحَمَّد ﷺ وقد صرفته مجاهدة الدين الجديد عن الطب فأهمل العناية به. واشترك مع أبي سفيان وزمرته من مشركي قريش في موقعة بدر فوقع أسيراً في أيدي المسلمين. وفي بقعة تسمى (الصفراء) على بعد سبعة عشر ميلاً من المدينة المنورة أمر النبي ﷺ عليا بن أبي طالب بضرب عنقه.

ويروى أن أخته واسمها (قتيلة) قالت في رثائه:

ظلت سيوف بني أبية تنوشه   لله أرحام هناك تمزق
أمُحَمَّد؛ ولأنت نسل نجيبة   في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت، وربما   من الفتى، وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أخذت بزلة   وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كانت قابل لفديته   بأعز ما يغلو لديك وينفق

ويقول ابن رشيق في كتاب (العمدة) إن قتيلة هي ابنة النضر وليست أخته وإنها قد عرضت للنبي ﷺ وهو يطوف فاستوقفته وأنشدته الأبيات.

وقيل في وصف شعرها: إنه أكرم شعر من موتورة وأعفه وأحكمه. ويروي أن النبي ﷺ قال: لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته. وهكذا ذهب طبه، وذهبت حكمته، وبقى ذكره مقروناً بالإثم الذي ورطته فيه أنانيته.

* * *

٣ـ ابن رمثة التميمي:

ورد اسمه كثيراً في كتب السيرة، وكتب تاريخ الطب، ولكن لم يرد تفصيل لحياته ونشأته وموته، وكل ما قيل عنه أنه كان طبيباً على عهد الرسول ﷺ ، وأنه كان متخصصاً في الجراحة بارعاً فيها.

* * *

٤ـ عبد الملك بن أبجر الكناني:

بعد وفاة جالينوس صارت الإسكندرية موطن أعلام الأطباء، وكثير منهم عني بكتب جالينوس: فمنهم من فسرها فأطال فيها، ومنهم من لخصها وعرضها موجزة. وظهرت لهم مقالات في: استخراج مياه الحشائش، وفي الألوان وطبيعة الجنين، والنبض، والنوم، والطعوم، وعضة الكلب، وأسباب الإمساك، والأدوية المنقية للمعدة والأمعاء، وتحسين الصوت، ونفي الآفات عنه، ووجع القرس، والحصاة ووجع الكبد، وعرق النسل، والسرطان، والقوباء، وما يعرض للثة والأسنان.

وبين هؤلاء الأطباء الأعلام نشأ عبد الملك بن أبجر وعنهم أخذ، ونبغ وعد واحداً منهم، وتولى التدريس في جامعة الإسكندرية، وكان نصرانياً، ثم أسلم على يد عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ أمير لم تصر إليه الخلافة. ولما صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز نقل تدريس الطب من الإسكندرية إلى إنطاكية وحران، واستصفى لنفسه عبد الملك بن أبجر يستطبه، ويعتمد عليه في كل ما له صلة بصناعة الطب.

* * *

٥ـ ابن أثال:

كان مسيحياً من دمشق، وكان معاصراً لمعاوية بن أبي سفيان وعرف معاوية تقدمه في الطب فاستصفاه لنفسه.كان ابن أثال متميزاً في الأدوية المفردة والمركبة، وكان أعلم الناس بالسموم، وكان أداة لمعاوية في التخلص من أعدائه، إذ كان من خصائص معاوية أنه ينخدع لأعدائه، ويلين لهم في القول ويحلم إذا أغلظوا له، ثم يتخلص منهم بالسم. وقد وجد معاوية في ابن أثال أداة مطواعة له، فاستعان به في القضاء على الأشتر النخعي حين بعثه على بن أبي طالب والياً على مصر بعد مقتل مُحَمَّد بن أبي بكر، وعلم معاوية أن أحب طعام إلى الأشتر هو العسل فنبه ابن آثال إلى ذلك فدس له السم في العسل وأكله فمات، ولهذا قال معاوية: "لله جنود منها العسل" وقال العرب في أمثالهم: "إن السم في العسل". ودس معاوية للحسن بن علي سمًا من يد ابن أثال فقضى عليه وعلى كثير من زعماء العرب المعارضين لسياسة معاوية.

وقد حدث أن معاوية أراد أن يأخذ العهد من بعده لابنه يزيد فجمع أهل الشام وقال لهم: لقد كبرت سني، وأحسست بدنو أجلي، فمن ترونه أهلاً للخلافة من بعدي؟.. فأجمعوا على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ولم يكن في ذلك ما يرضي معاوية، فأضمر الحقد لعبد الرحمن، وأوحى إليه طبيبه ابن أثال أن يدس له السم ففعل، وشرب عبد الرحمن سمه فمات، ووصل خبر موته مسموماً إلى ابن أخيه خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد فحزن وتألم. ومر به عروة بن الزبير بن العوام فعيَّره بموت عمه مسموماً فعزم على الثأر والانتقام، وسافر إلى دمشق متنكراً ومعه غلام له، وتربصا بابن أثال حتى سنحت لهم فرصة مروره بهما فوثب إليه المهاجر فقتله، وفر هو وغلامه، ولكن الناس لاحقوهما فدخلا زقاقاً انقطع فيه أثرهما.

ووصل الخبر إلى معاوية فحزن على طبيبه حزناً شديداً وقال: هذه فعلة خالد بن المهاجر، وأمر بتفتيش الزقاق الذي انقطع عنده أثرهما فوجدا فيه واقتيد المهاجر إلى معاوية فهم بقتله، ولكنه خاف ثورة المسلمين عليه، إذ لا يجوز قتل مسلم في مشرك، فاكتفى بأن جلد المهاجر مائة سوط وحبسه وألزمه اثني عشر ألف درهما دية الطبيب المقتول، وقال: "والله لو كان ابن أثال تشهد مرة واحدة لقتلتك به".

هذا الطبيب قد خان أمانة الطب فحوله من صناعة تحيي إلى صناعة تميت، وهو لم يخرج عن كونه واحداً من كثيرين مثله يظهرون بين الحين والحين في كل زمان وفي كل مكان يخونون واجبهم، ويزرون بإنسانيتهم

ويشترون بعهد العلم وأمانته ثمناً قليلاً. إلا أنه مع ذلك كان طبيباً حاذقاً في تركيب الأدوية، بارعاً في تأليف السموم، والتفنن فيها.

* * *

٦ـ الحكم بن أبي الحكم الدمشقي

كان أبوه طبيباً، وكان نصرانياً من أهل دمشق، وكان من أطباء معاوية بن أبي سفيان، وسيَّره معاوية إلى مكة طبيباً لابنه يزيد حين أقامه أميراً على الحج، وأوفده كذلك إلى مكة مع عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس طبيباً له.

وقد اشتهر بتركيب الأدوية، وعاش نحو مائة سنة، وعاصر عبد الملك بن مروان، وقيل: إن عبد الملك حين اشتدت به العلة استشار ابن الحكم فقال له: إن شربت الماء قبل زوال علتك وافاك الموت. فامتنع عبد الملك من شرب الماء يومين، وقيل: إنه في اليوم الثالث كانت عنده بناته وهن يبكين أشد البكاء لاشتداد علته، ثم دخل عليه ابنه الوليد وقد علت وجهه علامات السرور لقرب موت أبيه، وسأل أباه عن حاله فقال أبوه:

ومستخبر عنا يريد بنا الردى　　　ومستخبرات والدموع سواجم

وقد ألقى الشطر الأول متجهاً نحو ابنه، وألقى الشطر الآخر متجهاً نحو بناته، وثار غضبه من مظهر ابنه هذا وعقوقه الشديد، فدعا بالماء

وشربه فمات من ساعته كما أنذره الطبيب أبو الحكم. وقد ساق المؤرخون هذا الحديث لإقامة الدليل على براعته في الطب.

ومما يروى عن براعته أيضاً في الطب أنه سار هو وابنه عيسى في شوارع دمشق فمرا بحجام قد اجتمع عليه الناس، وأمامه رجل ينزف الدم من ذراعه نزفاً شديداً، وقد استنفد الحجام وغيره كل حيلة في إيقاف الدم فلم يتوقف. لقد استعمل الرقائد، ونسج العنكبوت، والوبر فلم ينقطع الدم وتعرضت حياة المفصود للخطر، فقال الحكم لابنه: أعندك لذلك حيلة؟ قال ابنه: لا أرى لي في ذلك من حيلة. فتقدم هو لإنقاذ المصاب فدعا بفستقة خضراء وشقها وطرح ما فيها، وأخذ أحد نصفى القشرة، فجعله على موضع الفصد الذي كان أصاب شرياناً، ثم أتى بجزء من ثوب كتان غليظ ولفه على الجرح والفستقة لفاً شديداً كان الرجل المفصود يستغيث من شدته، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردى، وأدخل يده في الماء، ووطأ له على شاطئ النهر ونومه عليه، وسقاه زلال بيض لم يتم نضجه، ووكل به واحداً من تلاميذه وأمره بمنعه من إخراج موضع الفصد من الماء إلا وقت الصلاة، وإلا إن خاف عليه الموت من شدة البرد، فإن حدث ذلك يخرج يده هنيهة ثم يعيدها.

ولما أقبل الليل أمر بحمل الرجل إلى منزله، ونهاه عن تغطية موضع الفصد، وعن حل الرباط قبل خمسة أيام. وفي اليوم الثالث كان الفصد قد اشتد ورمه، فلما زاره واشتكى له الورم خفف الشد قليلا، ثم قال له: الورم أهون من الموت. وفي اليوم الخامس أزال الرباط فظهرت قشرة

الفستقة باللحم فقال للرجل: بهذه القشرة نجوت من الموت فإن خلعتها قبل أن تسقط من تلقاء نفسها هلكت.

وسقطت القشرة في اليوم السابع، وفي مكانها دم متجمد فنهاه عن العبث به أو حكه حتى يتفتت وحده، ولم يزل الدم المتجمد يتلاشى حتى زال، ونجا الرجل من موت كاد يتحقق.

* * *

٧ـ زينب طبيبة بني أود:

لم يكن الطب في الجاهلية وصدر الإسلام وقفاً على الرجال، ولكن زاولته النساء أيضاً وبرع فيه بعضهن، ومنهن من تخصصت في بعض نواحيه مثل زينب طبيبة بني أود، فقد برعت في طب العيون، واكتسبت خبرة واسعة، وشهرة عريضة.

ويروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني أن رجلاً ذهب إليها لتتولى علاجه من رمد قد آذاه. قال الرجل: فلما فحصتني كحلتني ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك. قال: فامتثلت لأمرها، واضطجعت، وقلت متمثلاً بقول الشاعر.

أمخترمـي ريـب المنـون ولم أزر   طبيـب بـني أود علـى النـاي زينبـا

فضحكت الطبيبة ثم قالت: أتدري من قائل هذا الشعر؟ وفيمن قاله؟

أجاب الرجل: بل حفظت البيت وأعجبت به دون أن أتحرى ذلك.

قالت: إن قائله هو الشاعر أبو سماك الأسدى، وقد خصني والله به، فأنا زينب التي يعنيها هنا.

* * *

٨ـ ماسرجويه:

يقول ابن جلجل المؤرخ: إنه كان طبيباً في أيام الدولة المروانية ونقل كتاب أهرن القس بن أعين إلى العربية، ويروى أن عمر بن عبد العزيز وجده في خزانة الكتب فأخرجه ووضعه في مصلاه حيناً، ثم أخرجه بعد ذلك للناس. ويقول ابن جلجل أيضاً: إن ماسرجويه له كتاب "قوى الأدوية ومنافعها ومضارها" وكتاب "قوى العقاقير ومنافعها ومضارها".

ونفهم من هذا أن حركة الترجمة والتأليف لم تبدأ في العصر العباسي ولكنها بدأت في العصر الأموي واشتد نشاطها في العصر العباسي.

* * *

٩ـ تياذون:

ويسمونه أيضاً ثاوذن وكان من أطباء الحجاج، وله كتاب كبير عمله لابنه. ويروى أن الحجاج كان قد اعتاد أكل الطين من صغره ولزمته تلك

العادة في كبره فسأل ثاوذن: أي شيء دواء الطين؟ فقال: عزيمة مثلك يا أمير المؤمنين. فرمى الحجاج بما في يده من طين، ولم يعد إليه بعد ذلك.

* * *

١٠- ابن الحتر الكناني:

طبيب ماهر كان في أيام عمر بن عبد العزيز، وكان عمر ينقده مائة دينارا إذا استدعاه لعيادته في مرض أصابه.

* * *

١١- خالد بن يزيد بن معاوية:

وصفه صاعد الأندلسي بأنه كان عالماً بالطب، والكيمياء، وأنه أول من نقل طب اليونان إلى العربية.

الفصل السادس

نهضة الطب في العصر العباسي

تعصب الغرب ضد العرب:

من أهل الغرب متعصبون ينكرون كل فضل للعرب، ومنهم من يرون للعرب فضلاً واضحاً ولكن يعز عليهم أن يعترفوا بهذا الفضل، وأكثرهم لا يزيد على أن يقول: إنهم كانوا مجرد نقلة، ولكن الغرب لم يخل من منصفين.

آراء المنصفين من أهل الغرب:

هناك طائفة أقل تعصباً فهم يعترفون بما للعرب من فضل في جميع العلوم ومنها الطب، ومجمل ما يقولون: إن العرب نقلوا كنوز الحكمة اليونانية، وأضافوا إليها من فيض عقولهم، ومن حسن تجاربهم، ثم قدموا تراثاً صالحاً قامت عليه نهضة الطب في العصور المتأخرة.

يقول الدكتور سارطون مؤلف كتاب "الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط" الذي ترجمه الأستاذ عمر فروخ: "إن بعض الغربيين يحاولون الاستخفاف بما أسداه الشرق الأوسط إلى العمران فيصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً ما. وهذا الرأي خاطئ، فلو لم تنتقل الحكمة اليونانية، ولولا إضافات العرب المهمة لتوقف سير المدنية بضعة قرون".

وقد نقل الأستاذ طوقان في كتابه "تراث العرب العلمي" عن الدكتور سارطون أيضاً: "إنه على الرغم من مذاهب العرب الجديدة فإنها مفيدة جداً ومهمة جداً لأنها سهلت الطريق للنهضة الفكرية الكبرى فيما بعد..."

ثم يعود الدكتور سارطون فيقول: (إن العرب كانوا أعظم معلمين في القرون الثلاثة: الثامن، والحادي عشر، والثاني عشر).

ويقول الدكتور سعيد عبده في مناقشة آراء (جوزيف جارلند) مؤلف كتاب "قصة الطب" الذي لم ينصف فيه العرب: "والطب العربي أو الطب الإسلامي الخصب الذي ألف في تاريخ الطب حضارة علمت أطباء العالم أكثر من ثمانية قرون جعله المؤلف (جوزيف جارلند) نداً وقريناً للطب الكهنوتي المجدب في قرون أوربا المظلمة، وشرك بينهما بحق النصف لكل منهما في فخر المحافظة على تراث الطب الإغريقي القديم".

"إن المؤلف ينهج الطريق الذي سلكه كثير من المؤرخين الغربيين في اعتبار العرب مجرد نساخ لطب أبقراط وجالينوس، ونسوا أنه عندما كان العقل الأوربي غارقاً في ضباب الخرافات الكهنوتية، وكان الرهبان يتجرون في اللبن الذي يزعمون أنه من ثدي العذراء، وكان اسم أرسطاطاليس مجهولاً في أكسفورد وباريس –كان العرب يعيدون الحياة إلى طب الإغريق والرومان وفلسفتهما، وليس هذا فحسب، ولكنهم فوق ذلك يضعون الأساس لطب عاشت عليه جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر، وكانوا

يصفون أدوية لم يعرفها أبقراط ولا جالينوس، بل كانوا أكثر من ذلك يردون مجاهل في الطب لم ترد لأي منهما على بال".

ويقول الدكتور (مابرهوف) في كتابه (تراث الإسلام):

"إن الطب الإسلامي قد عكس ضوء الشمس الغاربة في اليونان، وتلألأ كالقمر في سماء العصور المظلمة، وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها، وأضاء سناها ظلمة هذه السماء ثم أفل القمر، وخبا ضوء النجوم في فجر عصر الأحياء وإن بقى أثرها حيا في الحضارة حتى الآن".

ومما استقصاه الأستاذ طوقان أيضاً أن سارطون، وسميث، وكاجوري، وبول قد اعترفوا بأن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيداً، ثم طبقوها على حالات كثيرة مختلفة، ثم كونوا من ذلك نظريات جديدة، وبحوثاً مبتكرة، فقدموا للعلم بذلك خدمات لا تقل شأنا عن غيرها من الخدمات التي أتت عن مجهود كبار علماء الغرب".

ويقول الدكتور نكتون: "لو لم يكن للعرب من فضل غير إنقاذ الطب والعلوم القديمة من الضياع لكفاهم ذلك فخرا".

ومما نقل الأستاذ طوقان أيضاً عن السير وليم أوسار قوله في كتاب تطور الطب: "إن العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية، وبلغت صناعة الطب عندهم منذ القرن الحادي عشر مكانة وأهمية لا نجد لها مثيلا في التاريخ".

ونقل أيضاً من كلام البارون كارادي فو: "لم يحسن الرومان القيام على الميراث الذي تركه اليونان فتسلمه العرب وأتقنوه".

كنوز الحكمة بين الشرق والغرب

الحق الذي يسجله التاريخ دون محاباة أن كنوز الحكمة اليونانية كانت قد اندثرت في أوروبا خلال القرون المظلمة التي مرت بها، وضاعت كتب فلاسفة اليونان وكتب أطبائهم. فلما أذن الله للفجر أن يشرق هناك افتقدوا هذه الكتب فلم يجدوا لأكثرها أثراً إلا في الترجمات العربية، ومن ثم نقلوها إلى لغاتهم.

إن اليونان كانت قد أخذت عن الشرق في الماضي السحيق، ثم نقل العرب عن اليونان والفرس والهند والسريان والكلدان وصححوا ما وجدوا من أخطاء في بعض هذه الكتب، وتوسعوا في بعضها. ثم ضاعت أصول تلك الكتب، ولم يبق منها غير ترجماتها العربية وهذا معناه أن الأوربيين أخذوا عن العرب.

ويقول الدكتور طه حسين في جريدة الجمهورية[١٣] وهو يعرض كتاب تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية: "بوساطة هذا البحر عرفت الإنسانية نفسها فاتصل الشرق بالغرب، وأخذ الغرب من الشرق ما أنشأ حضارته الحديثة ونماها، وأتاح له ما ينعم به الآن من الرقي والبأس والسلطان، وما يزهو به من الابتكار في أنواع العلم والفن، وفي ضروب الإنتاج والاختراع... تعلم اليونان من الشرق عامة، ومن مصر خاصة،

---

(١٣) جريدة الجمهورية عدد ١٤ يناير سنة ١٩٦٠.

وعلموا من جاء بعدهم من الأمم: علموا الأمة الرومانية، وأتموا حضارة العرب وأتاحوا للغرب الأوروبي أسس الحياة العلمية والأدبية والفنية. وبفضل هذا الأدب والعلم والفن، بلغ الغرب ما بلغ في هذا العصر من التفوق على سائر أنحاء العالم، وقد علم اليونان أهل الغرب عن طريق العرب أولاً، ثم من الطريق المباشر بعد ذلك".

نعم إن الزمن دار دورته وعدنا أخيراً ننقل عن الغرب ما سبق أن نقله منا، ونأخذ عن علمائه كما قد سبق أن أخذوا عن علمائنا، وكل ذلك لا يضيرنا في ماضينا أو حاضرنا، "وتلك الأيام نداولها بين الناس"، "سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً".

حلقة مفقودة

كلما ذكرنا ماضي العرب العلمي والفني، وجدنا عقبة تحول بيننا وبين إيفاء العرب حقهم، ووجدنا أنفسنا مسوقين طوعًا أو كرهًا إلى ذكر النكبة التي أصابت العلم والأدب على يد التتار في بغداد، وعلى يد الإسبانيين ومحاكم التفتيش في الأندلس؛ فلو أن المكتبة العربية سلمت من أذى هؤلاء المتبربرين لكان للحضارة عامة، والحضارة العربية خاصة شأن غير شأنها اليوم.

ويجب أن يكون في اعتبار الباحث أيضاً تلك الظاهرة التي سادت المجتمع العربي منذ قامت فيه دولة الإسلام، تلك الظاهرة الاجتماعية التي سادت عصر التدوين والتأريخ، وهي ظاهرة نشأة الشعوبية وسعيها الحثيث إلى إضعاف العرب، وتمزيق وحدتهم، وبث الوهن والضعف في دينهم وخلقهم. لقد كان هؤلاء الشعوبيون ينازعون العرب في مجدهم، وعلمهم وشرف أنسابهم، وهذا بشار الشاعر الذي كان من أصل فارسي يقول وهو يهجو رجلاً من أشراف العرب:

أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع بني الأحرار، حسبك من خسار

هؤلاء الشعوبيون أعاجم تعلموا اللغة العربية وأجادوها، فكان منهم الشعراء والكتاب والفقهاء والمؤرخون، وهم جميعاً يعملون على إخماد جذوة النهضة العربية، وعلى تزوير التاريخ، وعلى تشويه الحقائق.

وشيء آخر يجب ألا نغفله هو أن من طبيعة الشعوب حين يصيبها الضعف أن تنظر إلى كل أجنبي وإلى كل طارئ نظرة اعتبار على نحو ما كنا ننظر قبل يقظتنا الثورية إلى كل ما هو أوربي أو أمريكي، حتى لقد ثار بذلك شاعر النيل حافظ إبراهيم وقال فيما قال:

أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا

وهناك أمر أخير هو أن أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا كالعرب في الصراحة والشجاعة الأدبية، بل كانوا يحسنون أسلوب المكر، ويتأنقون في حسن الجواب، فيستميلون بذلك عامة الناس وخاصتهم:

يحكى أن الخليفة المتوكل حين أراد اختبار الطبيب حنين بن إسحاق قال له: صف لي سما يقتل لساعته. ولو كان هذا الطبيب عربياً خالصاً لصرح بما يعرف، ولكن حنين بن إسحاق قل: يا أمير المؤمنين، أنا أحسن ما يحفظ الصحة ويصون السلامة، ولا أعرف ما يعجل الموت.

وكان هذا الجواب سبباً في أن يجعله الخليفة موضع ثقته، ويقيمه مشرفا على صحته وصحة أسرته.

هذه الظواهر كلها كانت سبباً في إهمال كثير من الأطباء العرب وظهور طوائف من أعاجم الأطباء عليهم، وإلى هذا يشير الجاحظ في كتاب البخلاء بإيراد القصة التالية:

"كان أسد بن جاني طبيباً فأكسد مرة، فقال له قائل: السنة وبيئة، والأمراض فاشية وأنت ذو علم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة فمن أين لك هذا الكساد؟ فقال:

"أما واحدة فأنني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب.

وأما الثانية فاسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون صليباً، أو جبرائيل أو يوحنا. وكنيتي أبو الحارث وكان يجب أن تكون أبا عيسى أو أبا زكريا.

وثالثاً: عليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود.

ورابعاً: لفظي عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور.

كل هذا كان سبباً في إضاعة كثير من معالم طب العرب، وكثير من سير أطبائهم، ومع كل هذه العوامل والدوافع بقيت للعرب آثار ذات شأن كبير في الطب والتطبيب.

أثر العرب في الحضارة الأوربية

كان للعرب إنتاج في الطب ترجموه، وكان لهم إنتاج آخر ابتكروه، وهذا الإنتاج بنوعيه قد أثر أعظم تأثير في الحضارة القائمة في أوربا اليوم لا في الطب وحده، بل في الفلسفة والاجتماع ونحوهما. وليس هناك مثلا من يستطيع أن ينكر أن مقدمة ابن خلدون كانت نواة علم الاجتماع، وأنها ترجمت إلى أكثر اللغات الأوربية، ودرست هناك في أكثر الجامعات.

وليس هناك من يستطيع أن ينكر أن فلسفة ابن رشيد كانت محور الدراسة في أوربا، وأنه عرف فيها باسم "أفيروس" وما زال هذا الاسم يتردد في كتب الفلسفة حتى اليوم ويظنه بعض من لا علم لهم أنه أحد أعلام قدماء اليونان.

أثر ابن سينا في الطب

إذا جاز على فضل أن ينكر فإن فضل ابن سينا على الطب والفلسفة وفضله على جامعات أوربا عامة لا يمكن أن ينكره منكر، أو يجحده جاحد. إن اسمه ما زال يدوي في أوربا "أفي سين" –كما ترجموه– وبعض من يقرءون له، أو ينقلون عنه يظنون أنه يوناني قديم. إن كتابه "القانون في الطب" قد ترجم إلى اللاتينية وطبع خمس عشرة مرة فيما بين سنتي ١٤٧٣ و١٥٠٠م وظلت الجامعات الأوربية كلها تعول عليه في التدريس حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي.

وقد نقل صاحب كتاب أخبار الحكماء عنه في تعريفه لنفسه قوله:

"رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه. وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أنني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الأطباء يقرءون عليّ علم الطب، وتعهدت المرضى فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجارب ما لا يوصف".

ومعنى ذلك أنه لم يكن مجرد آخذ عن طب اليونان، ولكنه كان رجل تجديد وابتكار وتجارب؛ لقد وصف الالتهاب السحائي وصفاً صحيحاً، وفرّق بينه وبين الأمراض المشابهة له. وفرّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في المخ، والناجم عن سبب خارجي. وفرّق بين داء الجنب، وألم الأعصاب فيما بين الضلوع. ووصف السكتة المخية الناجمة من كثرة الدم.

ولم يعتمد في هذا على علوم اليونان بل لقد خالف فيه ما أجمعوا عليه فكان بذلك مجدداً في الطب ومبتكراً. ووصف أعراض حصى المثانة وصفاً لم يجد الطب الحديث جديداً يضيفه إليه. وكشف عن مرض الإنكلستوما قبل أن تعرفه أوربا بنحو تسعمائة عام، وقرر أن مصدره دودة معوية سماها "الدودة المستدبرة".

ويقول الدكتور مُحَمَّد عبد الخالق: إن الدودة المستديرة كما وصفها ابن سينا هي ما يسمى الآن "إنكلستوما". وقد أقرت ذلك مؤسسة روكفلر الأمريكية، فسجلت أن ابن سينا الطبيب العربي عرف مصدر هذا المرض قبل أن يعرفه الطبيب الإيطالي الذي نسب إليه الكشف عن هذا المرض.

وتحدث ابن سينا أيضاً عن السل الرئوي، وعن عدواه، وانتقاله بالماء والتراب. ووصف الأمراض الجلدية، والأمراض التناسلية، والاضطرابات العصبية. واستخدم الأساليب النفسية في علاج مرضاه.

روي أنه دُعي لعيادة فتى حار الأطباء في علاجه، وفحصه ابن سينا فحصاً دقيقاً فلم يجد به علة ظاهرة تسبب ما هو فيه من ضعف وهزال مخيف، وإخلاصاً منه لفنه أراد أن يعرف علته، فعمد إلى الفحص النفسي، فاستدعى أحد عرفاء المدينة، والعريف يومئذ أشبه بشيخ البلد أو بشيخ الحارة عندنا، وتناول ابن سينا يد الفتى يجس نبضه وهو يسأل العريف أن يعد له أسماء أحياء المدينة، فأخذ يسردها حياً حياً، وعند ذكر حي بعينه تغير نبض الفتى، فطلب ابن سينا من العريف أن يسمي له بيوت الحي،

فأخذ يسردها بيتاً بيتاً، فلما ذكر بيتاً زاد نبض الفتى اضطراباً، وعندئذ سأل الرئيس هذا العريف عن أسماء فتيات هذا البيت فأخذ يعرضهن اسماً بعد اسم حتى مر اسم واحدة منهن فاضطرب عند ذكره نبض الفتى اضطراباً شديداً، وزاد لونه امتقاعاً وساءت حاله. عندئذ قال الرئيس لأهل الفتى: زوجوه هذه الفتاة، فهي الدواء وهي مصدر هذا الداء".

وليس هذا استقصاء لكل آثار ابن سينا في الطب، ولكنه بعض ما ترجم عنه إلى اللاتينية وغيرها فأخذ عنه الأوربيون، وعملوا على تحسينه وإنمائه، وسلموه لأهل العصور الحديثة الذين ينكرون فضل العرب عليهم.

تعريف ببعض كتب ابن سينا وآرائه:

(١) له في الفلسفة ثلاثة كتب تعتبر خير ما عوَّل عليه الأوربيون في إقامة نهضتهم وهي:

١- "كتاب الشفاء": ويحتوي على المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات.

٢- "كتاب النجاة": وقد اختصر فيه كتاب الشفاء.

٣- "كتاب الإشارات": وفلسفته فيه أقرب إلى التصوف.

(ب) وله في الطب كتاب "القانون" وهو أكبر موسوعة طبية وصلت إلينا من القرون الوسطى.

وفي كتاب القانون عرَّف الطب، وذكر أركانه، وتحدَّث عن الأمزجة والأخلاط، وعن الأعضاء ووظائفها، وعن الأمراض وأسبابها وعن المفردات الطبية، والأدوية غير المركبة، وأثر كل دواء في كل عضو، ثم تكلم عن الأدوية المركبة، وأثر كل منها في الأمراض واحداً واحداً وكان يتتبع أثر كل دواء منها في المرض الذي يعالجه ويدون ملاحظته، فجاء علاجه وجاءت آراؤه نتيجة لتجاربه.

وقد ترجم كتاب القانون إلى اللاتينية، وظل المعول عليه دون منافس حتى القرن السابع عشر، وقد لخّص ابن سينا قانونه هذا في أرجوزة شعرية تشتمل على ١٣٢٩ بيتاً، ولا عجب فهو إلى جانب الفلسفة والطب والصيدلة كان جيد الشعر، ومن آثاره في الشعر قصيدته في "الروح" ويقول فيها.

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت، ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت، وما ألفت، فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق	والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكل خفية	في العالمين فخرقها لم يرقع

فهبوطهـا إن كـان ضـربة لازب | لتكـــون ســـامعة لمـــا لم يســـمع
فلأي شيء أهبطت من شاهق | ســام إلى قعــر الحضــيض الأوضــع
إن كـان أهبطهـا الإلـه لحكمـة | طويـت علـى الفطـن اللبيـب الأروع
إذ عاقها الشرك الكثيف فردها | قفــص عــن الأوج الفســيح الأربــع
فكأنهــا بــرق تألــق بالحمــى | ثم انطــــوى فكأنــــه لم يلمــــع

وله في الأعداء والحساد:

عجبـاً لقـوم يحسـدون فضـائلي | مـــا بـــين غيـــابي إلى عـــذالي
عتبوا عليّ فضلي، وذموا حكمتي | واستوحشـوا مـن نقصـهم مكيـالي
إني وكيـــدهم ومـــا عبثـــوا بـــه | كـــالطود يحقـــر نطحـــة الأوعـــال
وإذا الفـتى عـرف الرشـاد لنفسـه | هانـــت عليـــه ملامـــة الجهـــال

أثر الرازي في الحضارة الأوربية

تعريف به:

كان يلقب بـ "جالينوس العرب" وشغف في صغره بالموسيقى، ثم انصرف عنها إلى دراسة الفلسفة، وأخذ يؤلف فيها، ولكنه تعصب للعقل تعصباً شديداً، واعتبره المرجع الذي لا معقب عليه في كل شيء، ولذلك عارض بعض الإلهيات التي تسمو على عقل البشرية، فقوبل بنقد شديد، ولكن ظلت أخلاقه بنجوة من العيب حتى من أشد ناقديه.

وتفرغ للطب حتى صار أعلم أطباء عصره وأميرهم، وكان دائم الاطلاع والقراءة حتى ليقول ابن أبي أصيبعة نقلاً عن أحد معاصريه: "لم يكن يفارق المدارج، وما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ".

ولكثرة ما قرأ على نور القناديل ضعف بصره، ثم أصيب بالعمى بعد أن بلغ بعلمه وفضله ونشاطه منصب كبير أطباء مستشفى الري أعظم مستشفيات عصره.

ومن أهم كتبه التي تركت أثراً قوياً في الحضارة الإنسانية عامة والحضارة الأوربية خاصة:

١- كتاب الحاوي:

الذي اعتمد عليه العلماء في أوربا، وبقى عندهم من أهم المراجع الطبية إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. وقد ترجم إلى اللاتينية، ترجمة فرج بن سالم للملك شارل دانجو ملك صقلية سنة ١٢٧٩م وطبع مراراً في القرن السادس عشر. وقد دون في كتابه الحاوي بعض نوادر تدل على مبلغ عنايته بفحص المرضى، ومتابعة المرض وعوارضه للتوصل إلى العلاج الصحيح ومن ذلك:

يقول: جاءني رجل به داء الثعلب في رأسه فأشرت عليه أن يدلكه بخرقة خشنة حتى يكاد يدمى، ثم يدلكه بعد ذلك ببصل. ففعل ذلك مرات، وأسرف فأخذ يحس بألم اللذع شديداً، فأمرته أن يطلي الموضع بشحم دجاج، وفعل فسكن اللذع، ونبت الشعر، وصار أكثف وأشد سواداً مما كان.

ويقول أيضاً: كنا في سفر، وهاج بالرجل الذي يقود الحمار رمد فأشرت عليه أن يفتصد، فلم يفعل بل احتجم، وأخذ دواءً كان معه فقطره في أذنه، وأسرف فيه، ونهيته عن ذلك فلم ينته. فلما كان اليوم التالي اشتد به الرمد حتى لم يسبق أن رأيت أشد منه، وخشيت أن يذهب ببصره إذ لم يعد يظهر من القرنية إلا مقدار العدسة، فلما أجهده الأمر استسلم لي ففصدته وأخرجت له ثلاثة أرطال من الدم في مرتين، ونقيت عينيه من آثار الرمص وذررتهما، فنام من يومه وسكن وجعه وأبرأه الله من علته.

٢- كتاب المنصوري:

وسماه كذلك لأنه قدمه لرجل أحسن إليه وهو المنصور بن إسحاق، ويتحدث فيه عن شكل الأعضاء، ومزاج الأبدان، وقوى الأغذية والأدوية، وحفظ الصحة، وصناعة الجبر، والجراحات، والقروح، والسموم والحميات. وهذا الكتاب أقل حجماً من كتاب الحاوي، ولكنه كان ذا شهرة واسعة في العربية واللاتينية طوال القرون الوسطى.

٣- كتاب منافع الأغذية:

ويتحدث فيه عن منافع الحنطة وخبزها، وعن الماء الذي يشربه الإنسان، ومنافع المسكرات ومضارها، ومنافع اللحوم ومضارها، ومنافع السمك ومضاره، وأعضاء الحيوان ومنافعها ومضارها وألوان الطبيخ، والجبن، والزيتون، والمخللات، واللبن، والبيض، والبقول، والفواكه والحلوى، فهو من نوع كتب الطب الوقائي.

٤- وله كتاب في الحصبة والجدري فصل فيه هذين المرضين وأعراضهما ووضح الفرق بينهما. وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها.

وفي تقدير فضل الرازي يقول الطبيب الأوربي العالم دي بور: "كان الطب معدوماً فأحياه جالينوس، وكان متفرقاً فجمعه الرازي".

وللرازي جهود أيضاً في أمراض النساء والأمراض التناسلية وجراحة العيون، وكان من أوائل من طبقوا معلوماتهم في الكيمياء على الطب، وكان أيضاً من أوائل القائلين بأن الشفاء نتيجة تفاعل كيماوي في جسم المريض.

لقد استحضر الرازي بعض الحوامض بطريقة لا تزال مستعملة حتى اليوم، وهو أول من كشف عن حامض الكبريتيك، وسماه "زيت الزاج" أو "الزاج الأخضر" وحين اشتغل بالتدريس، ومزاولة علاج المرضى في مدينة بغداد، ثم مدينة في الري، تمكن من استخراج الكحول بالتقطير من المواد النشوية والسكرية المتخمرة. وكل ذلك قد نقله الأوربيون عن العرب، ومع ذلك لم يشع استعماله في أوربا إلا خلال القرن الثالث عشر مع أن الرازي كان يعيش في الثلث الأول من القرن العاشر.

والرازي من أوائل من عرفوا قيمة الآثار النفسية في العلاج والتطبيب ودعا الأطباء إلى أن يعملوا ما في وسعهم لرفع الروح المعنوية عند المريض، وفي ذلك يقول: "على الطبيب أن يوهم مريضه الصحة، ويرجيه إياها، وإن لم يثق بذلك، لأن مزاج الجسم تابع لأحوال النفس".

* * *

ومن مأثور كلامه الذي اختاره له ابن أبي أصيبعة:

- ينبغي للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل أو من خارج، ثم يقضي بالأقوى.

- ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد يثق به من الأطباء فخطؤه في جنب صوابه سيكون يسيراً جداً.

- من تطبب عند كثير من الأطباء، يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم.

- الأطباء الأميون، والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربة لهم، والذين قلت عنايتهم، وكثرت شهواتهم قتالون.

- على الطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة، ويمنيه بها، حتى لو كان واثقاً من غير ذلك، لأن مزاج الجسم تابع لأحوال النفس وأخلاقها.

- الناقهون من المرض إذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم وجب على الطبيب أن يحتال في تدبير ذلك الطعام، وصرفه إلى كيفية موافقة لهم، ولا يمنعهم ما يشتهون.

لقد ترجمت كتب الرازي إلى اللاتينية، وكانت العمدة في تدريس الطب بأوربا كلها في القرن الثاني عشر الميلادي وبخاصة في جامعة مونبلييه وجامعة باريس بفرنسا.

* * *

ومما يشكر لجامعة برنستون الأمريكية أنها اهتمت بالحضارة الإسلامية فخصصت أجمل جناح في أبنيتها لمآثر الرازي لأنه في رأيها علم من أعلام الحضارة الخالدين.

وقد أنشأت تلك الجامعة داراً لتدريس العربية، تهدف من ذلك إلى التمكن من البحث عن المخطوطات التي لم تطبع بعد، لتتمكن من نقلها إلى الإنجليزية، وإخراجها للعالم كي يقف على جلال التراث الإسلامي في الطب والعمران.

هذا قرار جامعة أمريكية، كانت جامعاتنا العربية أولى أن تضطلع به وبنحوه، وإذا جاز أن نلتمس لها عذراً في العهود الماضية بحجة أن هذا كان من أثر سموم الاستعمار، فلن نجد لها اليوم مثل هذا العذر، فقد انتهى عهد الاستعمار.

وقد تنبهت جامعة الدول العربية إلى شيء من هذا الواجب ففي سنة **١٩٥٣** دعت الإدارة الثقافية إلى مؤتمر علمي عقد بالإسكندرية، واشترك فيه كثيرون من رجال العلم والفكر من كل أرجاء الوطن العربي، وأسفر هذا المؤتمر عن قرار بتوصية لوزارات المعارف، وللمعاهد العربية في البلاد العربية كلها أن تعنى بدراسة آثار العرب في العلوم وتاريخها. ولما لم تجد استجابة لدعوتها كلفت الأستاذ طوقان عمل شيء، فألف بناءً على دعوتها كتاب "تراث العرب العلمي" وطبع ضمن مجموعة "الألف كتاب"،

وبعد ذلك بكثير أصدرت الدار القومية للطباعة والنشر كتاباً عن ابن سينا، وأصدرت إدارة الثقافة بوزارة الشئون الاجتماعية كتاباً عن الرازي.

* * *

إن في كلية الطب بباريس رسوماً لأكبر أطباء الإنسانية من عهد أبقراط، ومن جملتهم الرازي، وابن سينا، وابن زهر.

وابن زهر أول طبيب في العالم تحدث عن الشعور في العظام، وكان جراح عصره، وأستاذ القرون الوسطى في هذا الفن، وقد نشرت رسوم لأدوات جراحية كان يستعملها، ووجدت في بعض كتبه، وهي تشير في وضوح إلى طول باعه في هذا الفن.

الذي حفَّز جامعة الدول العربية إلى إصدار قرارها الذي سبقت الإشارة إليه هو أن تراث القدامى يعتبر في الواقع نواة النهضة التي يستمتع بها عالم اليوم.

ويجب أن نعرف أن قدماء اليونان مهدوا للدور الذي قام به العرب، وأن العرب بدورهم مهدوا لقيام الحضارة الأوربية، فإذا صح أن العرب قد أخذوا، فالأكثر صحة أنهم أيضاً قد أعطوا.

ويجب أن نعرف أن قدماء اليونانيين كانوا يعالجون مرضاهم بالكهانة على نحو ما كانت تفعل كل الأمم في أول نشأة الطب وأنهم كانوا ينسبون الأمراض إلى أعمال الشياطين، وأنه لما قامت الحرب المورية نشأ في أثنائها أبقراط، وسافر بعد انتهائها إلى سورية، واطلع على ما هنالك من طب العرب والبابليين والمصريين، وعاد إلى اليونان ينهج بالطب نهجاً جديداً هو الذي سمي من أجله، أبا الطب. وبهذا يكون العرب قد أسهموا في تطوير الطب اليوناني الذي انتفعوا به فيما بعد وطوروه مرة أخرى، وسلموه إلى أوروبا تضع به قواعد نهضتها.

وقد ألف أبقراط كتباً كثيرة في الطب وخاصة بعد أن كان اليونان يعدونه مجرد فرع من العلوم الطبيعية، ولم يكن أحد في اليونان قبل أبقراط يجعل الطب مادة مستقلة، وكان هذا من أثر ما أفاده من العرب وأبناء

عمومتهم من سريان وبابليين. فإذا أخذ العرب كتب اليونان وأفادوا منها لا يكونون مبالغين إذا قالوا: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وكان اليونانيون قديماً قد قاموا بإيصال الثقافة إلى الأوربيين.

والعرب إبان نهضتهم في العصر العباسي لم يأخذوا فنون الطب عن اليونان وحدهم، حتى يقال: إن الطب العربي كان ترجمة للطب اليوناني، فهذا قول فيه كثير من الحيف والظلم للعرب، لأن العرب نقلوا عن الفارسية وعن السريانية، وعن اليونانية، وابتكروا.

وقد وردت في كتاب "المقابسات" لأبي حيان التوحيدي من رجال القرن الرابع الهجري مناظرة جرت بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس المعروف بما ترجم من الآثار اليونانية:

قال أبو سعيد: أنت إذن لست تدعونا إلى علم المنطق، بل إلى تعلم اللغة اليونانية، وأنت لا تعرف لغة اليونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لأتفوه بها، وقد اندثرت من زمن طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتقارضونها ويتفاهمون أغراضهم بتعرفها؟ على أنك تنقل عن السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة اليونان إلى لغة أخرى وهي السريانية، ثم عن هذه إلى لغة أخرى وهي العربية؟

قال متى: يونان – وإن بادت مع لغتها – قد حفظت الترجمة الأغراض، وأدت المعاني، وخلصت الحقائق.

ويعلق الأديب الكبير حسن السندوبي على ذلك بقوله:

إن هذا دليل على أن نقل العرب لم يكن من اليونانية مباشرة، بل من السريانية والفارسية، وقرر العارفون أن كثيراً من النصوص ظهر أنها غير مطابقة للأصل اليوناني بعد العثور على مؤلفات أرسطو مكتوبة باللغة اليونانية الأصيلة.

الفصل السابع

من مظاهر تقدم طب العرب في العصر العباسي

وصل الطب إلى أوج العظمة والكمال عند العرب فيما بين القرن الثامن الميلادي والقرن الحادي عشر في حين كانت أوربا غارقة في بحر من ظلمات الجهالة والتأخر والفوضى.

أثبت التاريخ الذي لا شك فيه أن العرب في هذه الفترة كانوا على امتداد وطنهم العربي من الخليج إلى المحيط يجرون الجراحات الدقيقة، ويتفننون في تركيب الأدوية، ويتبحرون في الكشف عن خصائص النبات والمعادن، ويكشفون عن أنواع الأمراض، ويحققون أسبابها، ويعلنون سبل الوقاية منها.

وبينما كان العرب كذلك وأكثر من ذلك، كان أهل أوربا يعيشون في جهل مطبق، وكانوا من الجهالة بحيث إن أطباءهم كانوا يرون الجراحة صناعة معيبة لا يجوز أن يتولاها طبيب، ولكنه يشير بها إذا لم يكن منها بد، ويتولى إجراءها واحد من اثنين إما الحلاق، وإما الجزار.

حدث ابن قتيبة الدينوري الذي عاش في القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي في كتابه (عيون الأخبار) قال:

حدثني أحد الأطباء عن رجل شرب خبث الحديد المعجون، فبقي في جوفه، فاشتد عليه وجعه، فسحقت له قطعة من المغناطيس، وسقيته إياها فتعلق الخبث بالمغناطيس، وخرج مع الغائط.

والمتأمل في هذه الرواية يستنبط منها أن العرب عرفوا الحديد علاجاً للضعف وفقر الدم على نحو ما يعرف الطب اليوم من (مزيج الحديد والزرنيخ) الذي يقدم لكل المصابين بفقر الدم وضعفه، ويستدل منها على حسن تفكير أطباء العرب، وتفننهم في أساليب العلاج، وابتكارهم للأدوية، ويفهم منها تقدم وسائل الصيدلة وكل هذا يقتضي الاعتراف بأن العرب لهم فضل في وضع أسس الحضارة الإنسانية.

ويقول الطبيب المصري السابق حسن الرشيدي في كتابه (الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية) المطبوع بالقاهرة سنة ١٢٦٢هـ.

(أطباء العرب من أمثال ابن سينا والرازي هم أول من شرح الحصبة والجدري وداء الفيل، وشرحوا في كتبهم آفات كثيرة مما يتعرض لها الجلد، ولهم شروح كثيرة في البثور المخصوصة ببعض البلاد، وببعض الأشكال، وفي التلونات الجلدية، وآفات الشعر والأظفار، وقد وسعوا المقال في ذلك كله).

– ويسجل التاريخ أن العرب أول من وصفوا بعض الأمراض المعدية وصفاً دقيقاً.

– وأنهم أول من فرقوا بين أنواع الالتهابات.

– وأنهم أول من فطنوا إلى مرض الجدري، ومرض الحصبة، وفرقوا بينهما.

– وهم أول من أدخلوا نظام العلاج الطبي للمسجونين، إذ أن الوزير على بن عيسى أمر بتعيين أطباء يدخلون السجون ويعالجون من فيها من المرضى.

– وهم أول من أرسل الأطباء إلى القرى والأرياف التي لا يحتمل أن يكون فيها طبيب.

– وأنهم أول من استخدموا المخدر (البنج) في العمليات الجراحية.

– وأنهم أول من عرف التخصص فكان منهم أطباء العيون، ويسمون (الكحالين) ومنهم الجراحون، ومنهم الفاصدون، والحجامون ومنهم المتخصص في أمراض النساء.

– وأنهم كانوا يفحصون بول المريض ويسمونه "القارورة" على سبيل التورية، وتروى في ذلك نادرة لطيفة سجلتها كتب الأدب وكتب تاريخ الطب، وهي أن الرشيد حين أراد اختبار بختيشوع الطبيب أحضر له بول دابة على أنه بول جارية عزيزة عليه يريد علاجها، وعرض البول على الطبيب فأنكر أن يكون هذا بول إنسان، وطال الجدل بين الخليفة

والطبيب حول هذا الموضوع.. ثم قال الرشيد أياً كان هذا البول، وأياً كان صاحبه فماذا تقترح طعاماً لصاحبه المريض لكي يصح ويسلم؟

فقال الطبيب: الشعير الجيد يا أمير المؤمنين!

فضحك الخليفة واختار بختيشوع طبيباً له.

- والكي الذي كان – كما أسلفنا – علاجاً معروفاً في العصر الجاهلي أقره الأطباء العباسيون وتوسعوا فيه.

- وعرف العرب علاج الداء بالداء الذي نشأت عن نظريته مدرسة التشابه في الآلام التي تعرف باسم (مدرسة الهميوبائي) ولم تظهر في أوربا إلا خلال القرن الثامن عشر.

- وأطباء العرب هم أول من استخدموا صب الماء البارد علاجاً للنزيف.

- وهم أول من فرقوا بين المغص المعوي والمغص الكلوي وكان ذلك على يد ابن سينا.

- وهم أول من وجهوا النظر إلى شكل الأظافر عند المصابين بالسل الرئوي.

- وهم أول من نسبوا مرض البواسير إلى الإمساك الناجم من قبض المعدة، وأشاروا على المصاب به أن يأكل الأطعمة النباتية.

- والرازي أول من قرر أن المرض قد يكون وراثياً.

- والطبري الطبيب العربي أول من كشف جرثومة داء الجرب.

- وقد عرفوا الجمرة الخبيثة، وكانوا يسمونها "النار الفارسية".

- وقد عالجوا الشلل بالأدوية المبردة في حين كان أطباء اليونان يعالجونه بالأدوية الحارة.

- ووصف ابن سينا الشلل النصفي، وفرق بين شلل الوجه الناجم عن سبب في المخ، والناجم عن سبب موضعي.

- وكان العرب يخصصون في كل مستشفى جناحاً للأمراض العقلية، والأمراض العصبية وكانت أوربا لا تقيم وزناً لمثل ذلك.

- وكما برع العرب في الجراحة برعوا في علاج كسر العظام، وعلاج خلع المفاصل.

- والعرب أول من استخدموا الخيوط الجلدية في الجروح، واتخذوا هذه الخيوط من أمعاء القطط، والحيوانات الأخرى.

- وعرفوا كل أنواع الحميات، وأعراضها، حتى أدركها عامتهم وخاصتهم، وهذا هو المتنبي شاعر العروبة يصاب بالحمى وهو في مصر فيصفها وصفاً أدبياً رائعاً فيقول:

وزائـــرتي كـــأن بهـــا حيـــاء | فلـــيس تـــزور إلا في الظـــلام
بـذلت لهـا المطـارف والحشـايا | فعافتهـــا وباتـــت في عظـــامي
يضـيق الجلـد عـن نفسـي وعنهـا | فتوســـعه بأنـــواع الســـقام
إذا مـــا فـــارقتني غســـلتني | كـــأنا عاكفـــان علـــى حـــرام
كـأن الصـبح يطردهـا فتجـري | مـــدامعها بأربعـــة ســـجام
أراقـب وقتهـا مـن غـير شـوق | مراقبـــة المشـــوق المهـــام
ويصـدق وعـدها، والصـدق شـر | إذا ألقـــاك في الكـــرب العظـــام
أبنت الدهر[١٤]، عندي كل بنت | فكيـف وصـلت أنـت مـن الزحـام
جرحـــت مجرحـــا لم يبـــق منـــه | مكـــان للســـيوف ولا الســـهام

هذا الوصف الأدبي الرائع يدل على أن عامة الناس وخاصتهم قد عرفوا أعراض الحمى ومظاهرها ومن ثم يستدل على مبلغ نهضة الطب وقتئذ.

في هذا الوقت الذي وصل فيه الطب عند العرب إلى قمة المجد أصدر مجلس تورس البابوي في سنة ١١٦٣م قراراً بوجوب إهمال تعليم الجراحة في المدارس الطبية على أساس أن الجراحة لا تليق إلا بالحلاق والجزاز!

---

(١٤) بنات الدهر كتابة من المصائب.

في هذا الوقت الذي صدر فيه قرار مجلس تورس البابوي كان الطب عند العرب في حالة سمو أجاد وصفها الدكتور سعيد عبده في التمهيد الذي وضعه لكتاب "قصة الطب" إذ قال:

"لقد عرف الأطباء المسلمون مائة مرضا من أمراض العيون وعرفوا كثيراً من جراحاتها، ولهم فضل السبق في وصف الجرب، ومرض النزيف، وسرطان المعدة، وسرطان المريء، وفي اكتشاف كثير من الأدوية وطرق العلاج التي لا تزال مستعملة حتى الآن، وعلاجهم للنقرس هو الأساس الذي يسير عليه العلاج في العصر الحديث. ولقد عرفوا تأميم الطب والعلاج، وكانوا أول من عقد امتحاناً للأطباء، ولعلهم أول من أنشأ الصيدليات، والمستشفيات".

نوادر طبية

وتكملة لهذا نورد بعض ما حفظته كتب الأدب وكتب تاريخ الطب من نوادر على ما فيها من طرافة تدل على براعة أطباء العرب:

١- عرض على "أوحد الزمان أبي البركات" الذي كان طبيباً في بغداد أيام المستنجد بالله العباسي رجل مريض، علته الماليخوليا. كان هذا المريض يعتقد أن على رأسه دنا لا يفارقه. فكان إذا مشى يتجنب السير في أماكن سقوفها منخفضة، وكان يمشي برفق، ويجلس بحذر خوفاً على نفسه من خطر سقوط الدن فينخلع بسقوطه رأسه أو تنتزع جلدة الرأس.

وعالجه كثير من الأطباء، فلم يفلحوا، فلما عرض على "أوحد الزمان" رأى أن يعالج هذا المرض الوهمي بعلاج وهمي اتباعاً لقاعدة (داوني بالتي كانت هي الداء) وأسر إلى أحد غلمانه أن يقف قريباً منه فإذا رأى إشارة اتفقا عليها مر بخشبة كبيرة على رأس المريض كأنه يضربه.

وأمر غلاماً آخر أن يكون فوق السطح فإذا رأى الخشبة مرت فوق رأس المريض يلقي دنا من أعلى السطح.

وجلس الطبيب إلى المريض يحادثه، ويسمع منه شكواه ويؤيده بأن فوق رأسه فعلاً دنا كبيراً، وأنه سيخلصه منه، وطلب منه أن يسمح له بعصب عينيه، وأن يتماسك، وأن يكون شجاعاً، وحين عصب عينيه أشار

إلى حامل الخشبة فأهوى بها فوق رأس المريض بحيث لامسته ولم تؤذه، وفي الفترة ذاتها كان الغلام الآخر يسقط الدن من أعلى السطح فينزل مهشماً، ويسمع المريض صوت تهشيمه فيفيق، وتحل عصابة عينيه فيرى الدن مهشماً فيتأوه، ولا يشك في أن هذا هو الدن الذي كان فوق رأس، وهكذا مرض بالوهم، فعولج بالوهم، وثبتت براعة الطبيب الذي عالجه.

* * *

٢– كان هبة الله بن زيد بن حسن المعروف باسم (ابن جميع) جالساً يوما عند سوق القناديل بفسطاط مصر، ومرت جنازة، فلما نظر إليها صاح بأهل الميت: إن صاحبكم لم يمت وإن دفنتموه، فستدفنونه حياً، فنظر الناس إليه في عجب ولم يصدقوه.

وقال بعضهم: وما يضرنا أن نمتحنه؟ إن كان قوله حقاً فهذا ما نريد، وإن لم يكن قوله حقاً فلا ضرر يلحقنا.

واستدعوه إليهم، وقالوا: بين لنا ما تقول. فأمرهم بالمسير إلى البيت فلما وصلوا طلب منهم أن ينزعوا عنه أكفانه، ثم قال لهم: احملوه إلى الحمام، وهناك سكب عليه الماء الحار، وأحمى بدنه، ودلكه، وعطسه، فرأوا فيه مبادئ الحس، ثم تحرك حركة خفيفة، فقال لهم: أبشروا بعافيته واستمر في علاجه حتى أفاق.

وسئل بعد ذلك: كيف علم أن الرجل لم يمت، وهو محمول وعليه الأكفان؟ فقال: إني نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين، وأقدام الموتى تكون مبسوطة.

* * *

٣- كان سنان بن ثابت بن قرة وأبو الحسن الحراني صديقين يطببان معاً، وكانا يمران بمكان فيه بائع يقلي الكبود، وكلما مرا أمام هذا البائع حياهما، ودعا لهما بالخير والتوفيق. ومرا يوماً فلم يجداه، ومرا في اليوم الثاني فلم يجداه، واستقصيا أمره فقيل لهما: إنه قد مات الآن.

قال أحدهما للآخر: من حقه علينا أن نذهب إلى بيته، ووافق الآخر ومضيا إلى بيته، وشاهداه، فأشارا على أهله بتأجيل تكفينه ودفنه ساعة، وتشاورا في فصده، وطلبا من أهله استدعاء فصاد، فأحضروه وطلبا منه أن يفصده فصدة واسعة ففعل، وخرج منه دم غليظ، وكلما خرج الدم بدت تباشير الحياة حتى أفاق وتكلم، وسقياه ما يصلح، وانصرفا عنه، والناس في عجب.

وفي اليوم الثالث خرج هذا الذي ظن أهله أنه قد مات وأوشكوا أن يكفنوه ويدفنوه.

وسئل الطبيبان في ذلك فقالا: إنه كان إذا قلى الكبود يأكل منها وبدنه ممتلئ دماً غليظاً، وهو لا يحس، حتى فاض الدم من العروق في

الأوعية، وغمر الحرارة الطبيعية، وخنقها كما يخنق الزيت الكثير الفتيلة التي تكون في السراج. فلما نقص الدم بالفصد، وخف هذا الامتلاء، انتشرت الحرارة في الجسم، وعادت الصحة إليه.

* * *

٤- وفي كتاب (الفرج بعد الشدة): روى الحسن بن علي ابن الحسن الصيدلاني أن غلاماً حدثاً عندهم لحقه وجع شديد في معدته بلا سبب يعرفه، واشتد به حتى كاد يتلف. وعولج بكل شيء فلم يفلح العلاج، وأصبح ميئوساً من شفائه، وحدث أن مر بنا أحد الأطباء فاستدعاه والد المريض، وعرفه حال ابنه. فدخل الطبيب إلى المريض، وما زال يحاوره، ويبحث عن سبب علته حتى ذكر المريض أنه دخل بستاناً لهم تقوم فيه حظيرة للبقر، وكان في دار البقر رمان كثير فأكل منه عدة رمانات.

وسأله الطبيب: وكيف كنت تأكل؟ فقال: كنت أعض رأس الرمانة بفمي فأقضمها وأرميها، ثم آكل الرمان قطعاً.

فقال الطبيب: في غد أعمل لك العلاج بإذن الله.

فلما كان الغد جاء بقدر من لحم جرو "كلب" سمين، وقال للمريض: كل هذا فقال المريض: وما هو؟ قال: ستعرفه فيما بعد. فلما أكل أطعمه بطيخاً كثيراً، ثم تركه نحو ساعتين، وسقاه شراباً قد خلط بماء حار وشبث، ثم قال له: أتعرف ماذا أكلت؟ قال: لا. قال: إنه لحم كلب، فلما سمع

الغلام ذلك غثت نفسه، واضطربت معدته وأخذ يقيء بشدة حتى طرح كل ما في بطنه، وإذا فيه شيء أسود يشبه النواة، وهو يتحرك فأخذه الطبيب وقال للمريض: ارفع رأسك فقد برئت. فرفع الغلام رأسه، وانقطع عنه القيء. وسقاه الطبيب شيئاً يمنع الغثيان، وقال: لقد قدرت أن الموضع الذي كان فيه الرمان فيه قراد من البقر، وأنك حين كنت تقطع رأس الرمان، بفمك دخل بعض القراد جوفك، وعلق بالمعدة؟ وسبب لك ما كنت تحس به، ولأن القراد مغرم بلحم الكلاب أطعمتك لحم كلب ليترك المعدة ويعلق به، وعندئذ يسهل نزوله مع القيء. وقد صح تفكيري، ونجاك الله.

وبرئ الغلام، وصح جسمه بفضل ذكاء الطبيب وحسن تفكيره.

* * *

٥- كان للرشيد جارية أثيرة لديه، وحدث أنها تمطت ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا تستطيع ردها. ولما عجز الأطباء عن علاجها أشار جعفر بن يحيى البرمكي باستدعاء جبريل بن بختيشوع الطبيب، فلما حضر شرح له الرشيد حال الفتاة المريضة، ففهم حقيقة مرضها من تشخيص الرشيد. وقال: إن لم يسخط على أمير المؤمنين فعندي لعلاجها حيلة. قال الرشيد: وما هي؟

قال جبريل: تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريد، على أن تتمهل علي يا أمير المؤمنين، ولا تعجل بسخط أو غضب، فوعده الرشيد بذلك، وأمر بإحضارها.

فلما حضرت ورآها جبريل أخذ يحدق فيها كأنه معجب بحملها، ثم عدا نحوها حتى وصل إليها، وانحنى فأمسك ذيل ثوبها كأنه يريد أن يرفعه ويكشف جسمها، فمن شدة ما أصابها من الخجل والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها إلى أسفل ترد بها طرف ذيل ثوبها.

فصاح جبريل: لقد برئت يا أمير المؤمنين.

فقال لها الرشيد: ابسطي يدك فبسطتها، وقال لها: اقبضيها، فقبضتها وعادت إلى طبيعتها فمنحه الرشيد خمسمائة ألف درهما.

وسئل جبريل عن تعليل ما بها فقال: انصب إلى أعضائها خلط رقيق وقف الحركة وانتشار الحرارة في بدنها، ثم جمدت فضلة من الدم في بطون الأعصاب، ولا تتحلل هذه الفضلة المتجمدة إلا بحركة مثل الحركة التي نتجت عنها، فاحتلت حتى انبسطت بالخجل والانزعاج حرارتها، وتحللت تلك الفضلة المتجمدة.

٦- كان بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع قد عرض عليه رجل بدين أكول ليعالجه، فنهاه عن الإسراف في الطعام وأعطاه دواء، وحذره عاقبة الأكل الكثير.

ولكن ما كاد ينصرف عنه الطبيب، ويأتي وقت الغداء حتى عاد إلى حاله، فقد أكل في وجبة واحدة ثلاثة أرطال من اللحم، وثلاثة أرطال من الخبز، وطلب مزيداً فمنع، ولكنه وجد غفلة ممن حوله فأكل ٥ أرطالاً من شرائح اللحم، وشرب ماء بارداً، ولم يلبث أن استلقى على الأرض يتلوى من شدة الألم، وقد انتفخ بطنه، وأيقن الذين حوله أنه لا نجاة له، ولا بقاء.

وحمل إلى بختيشوع وهو على هذه الحال فعرف حقيقة أمره، وكان بختيشوع يربي في داره طيوراً كثيرة منها الحمام، ولهذه الطيور مسقاة كبيرة مملوءة ماء قد صار ساخناً بحرارة الشمس وقد ذرقت فيه الطيور، فدعا بكمية من الملح، وطرحها في هذا الماء، وذوبها فيه، وأتى بقمع وأخذ يسقي الرجل وهو لا يعي، وأمر من حوله بالتباعد عن المريض، وما لبث أن أخذه إسهال شديد، وقيء حاد أخذ بعدهما يفيق وهو في ضعف شديد، وصحا بعد أيام. وصلحت حاله بعد أن كان ميئوساً من شفائه.

وسئل بختيشوع في ذلك فقال: فكرت في أمره فوجدت أنني إذا أخذت أعد له الدواء فإلى أن أتم إعداده يكون قد مات، ونحن نعالج القولنج الشديد بذرق الحمام والملح ووجدت في المسقاة ماء قد سخن في الشمس واجتمع فيه ذرق الحمام فأضفت إليه الملح، وكان ذلك أسرع تناولاً من غيره، وقد نجحت الفكرة بحمد الله.

٧- كان صالح بن نهلة طبيباً في عهد الرشيد، وقد أخذ بمذهب أهل الهند في الطب، وحدث أن الرشيد تفقد طبيبه جبريل بن بختيشوع فلم

يجده، فلما وجده أخذ يؤنبه، فذكر له أن ابن عمه إبراهيم بن صالح يجود الآن بروحه وأنه كان يحاول علاجه، فحزن الرشيد لذلك لأنه كان يحب ابن عمه هذا، وأمر برفع الموائد وكثر بكاؤه فأشار عليه جعفر بن يحيى أن يبعث إليه بصالح بن نهلة الذي يعلم الطب على طريقة الهند، كما يعلمها جبريل على طريقة الروم، فوافق الرشيد وأوفد ابن نهلة إلى المريض. فذهب إليه وفحصه؛ ثم عاد يقول للرشيد: إن المريض سيشفى فأبشر، فسر الرشيد بذلك، وأعاد الموائد وأخذ يأكل ويشرب، فلما كان المساء جاء الخبر بموت صالح ابن عمه، فعاد الرشيد إلى حزنه، ولعن الطبيب صالح بن نهلة، وأسرع إلى ابن عمه، وهناك اتكأ على سيفه، وقال: لا يحسن الجلوس بالأحبة على أكثر من البساط، وقد صارت تلك سنة في بني العباس، ولم يكن الأمر كذلك من قبل.

ووقف صالح بن نهلة إلى أن فاحت رائحة المجامر فصاح ابن نهلة:

"الله، الله، يا أمير المؤمنين أن تأخذني بغير جريرة، وأن تدفن ابن عمك وهو حي، أنه والله ما مات، فأذن لي بالدخول عليه والنظر إليه"، وكرر ذلك مراراً حتى أذن له.

قال جبريل: فلما دخل إليه خرج من عنده وهو يكبر، ويقول: قم يا أمير المؤمنين لأريك عجباً، فدخل الرشيد، ومعه جماعة من خواصه فأخرج الطبيب إبرة وشكها بين ظفر إبهام يد المريض ولحمه فجذب المريض يده وردها إلى بدنه. فقال صالح الطبيب: يا أمير المؤمنين هل يحس الميت

الوجع؟ إني أخاف إن عالجته فأفاق وهو في كفن يحس فيه رائحة الحنوط أن يتصدع قلبه، فيموت حقاً، أو يجن فأمر بتجريده من الكفن، وحوله إلى فراشه المألوف حتى أعالجه بحضرة أمير المؤمنين.

أمر الرشيد بإجابة مطلب الطبيب الذي جاء بكندس وبمنفخة ونفخ من الكندس في أنف المريض فلم يلبث أن اضطرب بدنه، وعطس، ثم تنبه وجلس، فلما رأى الرشيد قبل يده، وأخذ يكلمه.

وسأله الرشيد عما به فقال: كنت نائماً نوماً طيباً لا أذكر أنني تمتعت بأطيب منه، إلا أن كلباً قد هاجمني فتوقيته بيدي اليسرى، فعض إبهامها عضة انتبهت بسببها وأنا أحس وجعها، وأراه إبهامه فإذا هو يشير إلى موضع إبرة الطبيب!.

وقد عاش إبراهيم بن صالح بعد ذلك، وتزوج العباسة أخت الرشيد، وولي مصر، وفلسطين، وتوفي بمصر ودفن فيها.

٨- وروى القاضي التنوخي في كتاب (الفرج بعد الشدة) قال: حدثني مُحَمَّد بن علي الخلال البصري أن غلاماً من بغداد كان عليلاً، فقدم الري وهو ينفث الدم، فاستدعى لعلاجه أبو بكر الرازي فجسه، ونظر إلى بوله – وكانوا يسمونه القارورة – وأخذ يسأله عن حاله منذ بداية العلة، فلم يقم من كلامه دليل على وجود سل أو قرحة، ولم يستطع أن يعرف العلة. وطلب من الرجل أن يمهله حتى يفكر في العلة، فيئس المريض من

نفسه، ويئس أبوه من شفائه ما دام سيد أطباء عصره قد تنصل من علاجه.

أما الرازي فقد قضى الليل مفكراً في أمر هذا المريض؛ ثم عاد إليه في الصباح، وسأله عن المياه التي شربها في طريقه فأخبره أنه شرب من مستنقعات وصهاريج فقام في ذهن الرازي أنه لا بد أن تكون علقة قد دخلت مع الماء في معدته وتشبثت بجدارها وأن هذا الدم من فعلها.

وقال للمريض: طب نفساً فإذا كان الغد جئتك وعالجتك ولن أنصرف حتى تبرأ بإذن الله، ولكن بشرط أن تأمر غلمانك بطاعتي في كل ما آمرهم به فيك بدون أية معارضة أو أي تردد. قال الرجل: لك هذا عندي.

وفي اليوم التالي جاء الرازي ومعه كثير من الطحلب، وقال للمريض: ابلع كل هذا الطحلب؛ ففيه شفاؤك؛ فبلع الرجل ما استطاع، ثم توقف، وعندئذ أمر الرازي غلمانه أن يطرحوه على ظهره، ويفتحوا فمه، وأخذ الرازي يكبس الطحلب فيه بشدة ويأمره ببلعه، ويتهدده بالضرب إن لم يفعل، والرجل يستغيث والرازي يصم أذنيه عن استغاثته، حتى امتلأ جوفه بالطحلب، وعندئذ تركه الرازي، وقال له: اقذف ما في بطنك، وكان القيء قد أخذه، فمازال يقذف والرازي يتأمل في قيئه حتى وجد فيه علقة فعزلها، وقال للمريض انظر؛ إن هذه هي مصدر علتك، وقد شفيت الآن. لقد دخلت مع الماء إلى معدتك، ولم يكن هناك سبيل لخروجها إلا هذا

الطحلب، لأنها تحبه، فتعلق به، ولذلك ملأت به معدتك حتى تترك العلقة المعدة، وتتعلق بالطحلب، وتنزل معه حين القيء.

وبهذا التفكير السديد، والابتكار الرائع نجا المريض.

الفصل الثامن

الصَيدلة عند العَرب

جاء في أول نشرة أصدرتها جمعية الصيادلة المصرية تعريف للصيدلة هو: "الصيدلة فن علمي يبحث في أصول الأدوية سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم معدنية من حيث تركيبها، وتحضيرها، ومعرفة خواصها الكيميائية والطبيعية وتأثيرها الطبي، وكيفية استحضار الأدوية المركبة منها".

فتاريخ الصيدلة مقترن بتاريخ الدواء. ومنذ وجد الإنسان ومرض احتاج إلى الدواء، فالصيدلة إذن قديمة قدم الإنسان، وهي متصلة بالطب اتصالاً وثيقاً وكان الطبيب هو الذي يعد الدواء الذي يصفه لمرضاه، وشيئاً فشيئاً انفصلت الصيدلة عن الطب، فوجد الطبيب، ووجد الصيدلي أو الصيدلاني.

والصيدلي في رأي القدماء –كما يقول البيروني المتوفى سنة ١٠٥٠م – هو الذي يجمع الأدوية على أحسن صورها، ويختار الأجود من أنواعها على أفضل التركيب التي خلدها مبرزو أهل الطب. وقد كتب العرب في ميدان الطب والصيدلة صفحات خالدة وتركوا أسماء لامعة ستظل الإنسانية مدينة لها.

والعرب قد مارسوا الطب في جاهليتهم، وفي صدر الإسلام فعرفوا بذلك كثيراً من خواص الأعشاب، والنباتات، والزيوت والعطور، إلا أنهم

في العصر العباسي نظموا الصيدلة وتوسعوا فيها، وانشئوا لها أماكن خاصة بها.

ويقول جوزيف جارلاند في كتاب قصة الطب: "تولى العرب دراسة العقاقير من حيث تركها ديوسقيوريدس وخلفاؤه منذ أمد طويل من السنين، فزادوا عليها طرقاً جديدة في التنقية كالتقطير، والبلورة، والتسامي. وهذه الطرق لا تزال مستعملة في كل معمل كيميائي حتى اليوم"

وعن علماء العقاقير العرب ورث الصيادلة العصريون الصمغ العربي بين عدد آخر من المواد. والعرب أول من أنشئوا فكرة التفتيش على الصيدليات، وتروي كتب تاريخ الطب ومنها كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة – الحادثة التالية:

كان يوسف لقوة الكيميائي كثير التردد على الخليفة المأمون وكان كثيراً ما يعمل بين يديه، فقال له المأمون يوماً: "ويحك يا يوسف أليس في الكيمياء شيء؟".

فقال: "بلى يا أمير المؤمنين، وإنما آفة الكيمياء الصيادلة".

قال المأمون: "ويحك، وكيف ذلك؟".

فقال: يا أمير المؤمنين إن الصيدلاني لا يطلب منه الإنسان شيئاً كان عنده أو لم يكن عنده إلا أخبره بأنه موجود، ودفع إليه شيئاً من الأشياء

التي عنده، وقال: "هذا هو الذي طلبت" فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسماً لا يعرف ويوجه جماعة إلى الصيادلة ليبتاعوه فليفعل.

قال المأمون: "قد اخترت اسم "سقطيتا"، ولم تكن سقطيتا سوى اسم ضيعة للمأمون قرب مدينة السلام، ووجه جماعة من الرسل إلى الصيادلة يسألون عن "سقطيتا" فكلهم ذكر أن عنده هذا النوع وأخذ الثمن وقدم شيئاً من حانوته. وعاد الرسل إلى المأمون يحملون أشياء مختلفة منها البذور، ومنها قطع الحجارة، ومنها الوبر.

وقد سر المأمون بفكرة يوسف لقوة، وأقطعه ضيعة، ورتب تفتيشاً على الصيدليات، كان أول تفتيش عرفه العالم.

وفي سنة ٨٣٨م كان الأفشين قائداً لجيوش المعتصم بالله العباسي التي حاربت الروم في آسيا الصغرى وانتصرت في موقعة عمورية التي خلدها شاعر العرب العظيم أبو تمام بقصيدته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

والتي يقول فيها:

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

ثم انصرف الأفشين بجيشه بعدئذ لمحاربة بابك الخرمي زعيم الإسماعيليين المتطرفين، وحدث أن أمر بإحصاء جميع من في عسكره من

التجار والصناع فلما وصل الحديث إلى الصيادلة قال لزكريا بن الطيفوري: ضبط هؤلاء الصيادلة أولى عندي من كل ما يمكن أن نقوم به، فامتحنهم حتى تعرف الناصح من غيره وحتى تعرف من له دين ومن لا دين له.

فروى له زكريا قصة المأمون مع يوسف لقوة فعندئذ دعا الأفشين بدفتر، وأخرج نحوا من عشرين اسماً، ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية سماها بتلك الأسماء فبعضهم أبدى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته، وبعضهم صرح بأنه لا يعرفها.

ثم أحضر جميع الصيادلة وكتب لمن أنكروا معرفة تلك الأسماء منشورات أذن لهم فيها بالمقام في معسكره ونفى الباقين عن المعسكر، ولم يأذن لأحد منهم بالبقاء، ونادى المنادي بنفيهم وبإباحة دم من وجد منهم في معسكره، وكتب إلى المعتصم يطلب صيادلة وأطباء لهم دين ومذهب جميل.

وبذلك كان العرب أول من وضع فكرة التفتيش على الصيدليات ومعاقبة الصيدلي الذي يرتكب الغش، وأدخلوا ذلك ضمن نظام الحسبة.

"والحسبة" معناها مراقبة المصالح العامة للتيقن من أنها تسير وفقاً لمبادئ الدين والشريعة، وكان المحتسب يحكم في الدعاوى المتعلقة بالغش والتدليس في المقاييس والمكاييل والموازين وغيرها، ويراقب كل مهنة وكل صناعة تخضع للرقابة، وأخذ العلماء يساعدون المحتسب على القيام بمهمته بتأليف الكتب التي تبحث في كل صناعة أو مهنة، وتكشف عن طريق

الغش فيها وقد كثرت المؤلفات في الكشف عن الغش في الصيدلة وتدليس الصيدليين.

* * *

والصيادلة العرب هم الذين كشفوا عن حامض النتريك وكانوا يسمونه ماء الفضة، وكشفوا عن حامض "الكبريتيك" وكانوا يسمونه زيت الزاج أو الزاج الأخضر، وعرفوا البوتاس، وروح النشادر، وملح النشادر. وعرفوا نترات الفضة، وكانوا يسمونها حجر جهنم، وعرفوا كلوريد الزئبق، وهو السليماني.

وقد ألف الكندي الفيلسوف العربي كتاباً في الطب، بنى فيه فعل الأدوية في الأجسام على تناسب هندسي كما بنى فعل الموسيقا وقال: إن الأمر في الأدوية أمر تناسب في الكيفيات المحسوسة وهي الحار، والبارد، والرطب، واليابس، وكان هذا من مبتكراته لا من منقولاته كما يصف الأوربيون كل جديد يأتي به العرب.

وكان العرب لا يسمحون لصيدلي أن يمارس مهنته إلا بعد اختبار وترخيص على نحو ما تمخضت عنه حضارة القرن العشرين. والعرب بوجه عام أول من تنبهوا للتفاعل الكيمياوي الذي يحدثه الدواء في الأجسام. وهم أول من استحضروا بعض الحوامض بطرق لا تزال مستعملة حتى اليوم، وهم أول من استخرجوا الكحول بالتقطير من المواد السكرية والمواد النشوية، وتوصلوا إلى ذلك قبل الأوربيين بنحو ثلاثة قرون.

وكان العرب يعتمدون على النباتات في تركيب أدويتهم كما يبدو ذلك جلياً من آثارهم المكتوبة التي خلفوها لنا مثل كتاب القانون لابن سينا ومفردات ابن البيطار، وتذكرة داود الإنطاكي، وفي القسم الخاص بالنباتات والزهور من كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري نجد لذلك أمثلة واضحة؛ فعند الكلام – مثلاً – عن زهرة الآس يأتي بعد وصفها وتشريحها بقول الرئيس ابن سينا:

"إنه يحبس الإسهال والعرق، وكل نزف، وإذا تدلك به في الحمام فإنه يقوي البدن، وينشف الرطوبات التي تحت الجلد، وهو ينفع من كل نزف لطوخاً، وضماداً، ومشروباً. وكذلك ربه، ورب ثمرته. وقبضه أقوى من تبريده. وهو يسرع جبر العظام. وليس في الأشربة ما ينفع أوجاع الرئة والسعال مثل شرابه، ودهنه وعصارته وطبيخه تقوي أصول الشعر، وورقه اليابس يمنع صنان الآباط، ورماده ينفي الكلف ويجلو البهاق".

وأكبر موسوعة خاصة بالأدوية المفردة تتمثل في الكتاب الجامع الذي ألفه ابن البيطار في القرن الثالث عشر، ويعرف باسم مفردات ابن البيطار، ويذكر فيه أدوية يصل عددها إلى ١٤٠٠ دواءً منها ٤٠٠ صنفا ابتكرها العرب وحددوها.

ويقول داود الأنطاكي الضرير صاحب كتاب "تذكرة داود" ذات الشهرة الواسعة:

إن أول من وضع قواعد هذا الفن ديسقوريدس اليوناني في كتابه الموسوم بالحشائش ولكنه أهمل أشياء كثيرة التداول مثل الكمون، والسقامونيا، والفارقون.

وذكر من بعده أندروماخس الأصغر فذكر مفردات الترياق الكبير فقط، ثم انتقل الأمر من يد اليونان إلى السريان على يد دويدروس البابلي.

ثم جاء إسحق بن حنين معرب الطب اليوناني والسورياني، وأضاف إليه ما أخذه من مصر من مصطلح الأقباط، ثم انتقلت هذه الصناعة إلى الإسلام على يد الإمام مُحَمَّد بن زكريا الرازي.

وطريقته في تذكرته حين يذكر الأدوية تتجلى ابتداء من الفصل الثاني من كتابه فهو يتحدث عن المفردات وعن الأفرباذينات أي التراكيب المتنوعة، فيذكر الاسم وضبط النطق به ويذكر اللغة التي جاء منها، وخصائصه الطبيعية والطبية فيقول مثلاً:

إبريسم: بكسر الهمزة والسين المهملة المفتوحة، معرب من بريشم بالعجمية وهو الحرير ويسمى بذلك قبل أن يخرقه الدود، وبعد الخرق يسمى قزاً أو قز ما عدا، وبعد الحل يسمى حريراً، وأجوده الأصفر الذي يشتد بياضه إذا غسل وحل، وكان رقيقاً وربى عند الاعتدال الأول، ولم يطعم دوده سوى ورق التوت الأبيض.

وهو يخصب البدن مطلقاً، ويمنع توالد القمل لبسا ويمنع الخفقان، وضعف المعدة والرئة أكلاً، ورماده لقروح العين والدمعة والجرب كحلاً ومتى خلط مطبوخة بالسكر وشرب فتح السدود وأصلح الألوان، ويضر محروقه بالكلى. وفي الباب الرابع يورد تفصيلاً لأحوال الأمراض الجزئية واستقصاء أسبابها، وعلاماتها، وضروب معالجتها.

* * *

وحول تذكرة داود ومفردات ابن البيطار كتب الدكتور يوسف إدريس بجريدة الجمهورية في ٢ من يونيه سنة ١٩٦٢ يقول في موضوع له بعنوان: رحلة لاكتشاف تاريخنا المعاصر.. وتحت عنوان فرعي كتب:

تذكرة داود تصبح مرجعاً لعلم العقاقير:

كنت ونحن نجول في أرجاء الكلية التي أصبح بها الآن أكثر من ستين أستاذاً ومدرساً ومعيداً قدموا منذ سنة ١٩١٩ إلى الآن أكثر من ٣٢٠ بحثاً مبتكراً ومؤلفاً علمياً تهدف كلها إلى استغلال الموارد النباتية المصرية والتخليق الكيماوي لمواد دوائية جديدة وصناعة الأدوية وتحليلها، بحوث ومؤلفات نشر الكثير منها بالخارج وأحدث دوياً، الكلية التي أصبح عدد طلبتها الآن حوالي ستمائة طالبا فيهم أكثر من ١٥٠ طالبة والتي بها متحف للعقاقير يعتبر بحق من أهم متاحف العلم بالنسبة للمجموعة النادرة من العقاقير التي يحتويها. كنت ونحن نجول في مدرجات ومعامل الكلية التي تغمرك على الفور بجو القداسة العلمية وتجعلك تحس لكلمة العقار والدواء

الأحاسيس المبهمة الرهيبة التي كان يحسها أجدادنا إذا ما ذكرت كلمة الكيمياء مثلاً، أو تليت كلمات السحر، كنت أفكر في ذلك الوقت بالذات في موضوع بعيد عن قداسة العلم تماماً ومراجعه الأجنبية وأجهزته ومعامل اختباره.

كان الموضوع هو الطب الشعبي، أو التداوي الشعبي ذلك "العلم" الذي برع فيه شعبنا براعة فريدة حتى افتتحت من أجله ومن أجل مزاولته دكاكين العطارين، وكنت متردداً أن أسأل عميد أكبر معهد علمي للعقاقير والتداوي عن كتب مملوءة بالخزعبلات كتذكرة داود وكتاب ابن البيطار ومبلغ ما فيها وما لها من فائدة أو ضرر.

وأخيراً ونحن في متحف العقاقير حيث نجد أكثر من خمسة آلاف نبات طبي منسقة على أحدث نظام علمي ألقيت على الدكتور عبد العظيم السؤال، وذهلت للإجابة:

فبدلاً من أن يضحك أو يسخر وجدته يقول: إن في هذه الكتب معلومات قيمة جداً وأن كثيراً منها مبني على تجارب علمية إما للمؤلف شخصياً أو لأناس أخذ المؤلف عنهم. وابتسم العميد ابتسامة هادئة طيبة مكملاً:

وصحيح أن معظم ما ورد من هذه الكتب مأخوذ عن كتاب المؤلف اليوناني ديسكوربدس الذي يسميه العرب ذي قورياس ولكن ديسكوريدس كما نعرف أخذ معلوماته هو الآخر عن المصريين القدماء.

ومن أروع كتب العلاج العربية ذلك الذي كتبه ثابت بن قرة على هيئة نصائح طبية ينصح بها ابنه بالعلاجات المختلفة، وقد أعاد طبع هذا الكتاب والتعليق عليه "ماير هوف".

وهنا تدخل الدكتور سيد هلال المدرس بقسم العقاقير وشعلة كلية الصيدلة التي لا تخمد في اتحادها ورحلاتها وحفلاتها ورياضتها، تدخل قائلاً:

إننا هنا في القسم لم نعد نكتفي بإجراء التجارب على الوصفات الواردة في هذه الكتب، لقد أصبحت العقاقير والوصفات الواردة فيها هي هدفنا المستمر، وخططنا كلها موضوعة على أساس حصر ودراسة كاملة لكل دواء جاء ذكره في هذه الكتب. ودراسة كهذه قد تستغرق عشرات السنين ولكنها حتمية إذ ثبت أن هذه الكتب لم تحتو تلك العقاقير عبثاً ولكنها نتيجة تجارب الشعوب مدى آلاف السنين؛ ولهذا فلا بد من أن كلاً منها يحتوي على شيء ذي بال مهما بدا لنا لأول وهلة أنه غير مفيد؛ إذ يحدث أحياناً ألا تكشف التجارب التي تجرى على العقاقير عن أهمية تذكر، ولكن باستمرار التجارب وتحسين ظرف البحث نكتشف فجأة أن بها مواد فعالة ذات أهمية غير عادية.

مفردات ابن السويدي

ومن أبرز تلاميذ ابن البيطار العلامة ابن السويدي الذي عاش في دمشق، وزاره فيها الطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة وقال: "أول اجتماعي به كان في دمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النباتات الطبية، وقرأت عليه تفسيره لأسماء أدوية ديسقوريدس، فكنت أجد من علمه ودراسته وفهمه شيئاً كثيراً جداً".

وينسب إلى الأمام الشعراني كتاب قال في مقدمته: "هذا كتاب اختصرت فيه التذكرة المشهورة بمفردات الإمام السويدي رئيس الحكماء، ومما نقله عن نحو أربعمائة حكيم من أهل الملة الإسلامية ومن اليونان وغيرهم وقد التزم رحمه الله أنه ما جمع فيها إلا ما استحسنه من مجربات الحكماء واختاره من معالجات العلماء بصناعة الطب، أو ما جربه مراراً فعرف نفعه وقد رتبه على أمراض الأعضاء من مبتدأ علو الرأس إلى القدمين".

ومن أمثلة ما أورده: "علاج الصرع: إذا ضمد الرأس بالورد الطري، أو شم، سكن الصرع، وهو يطفئ حرارة الدماغ، وإذا طبخ الورد اليابس بشراب نفع من الصداع الحاد، وزهر الحناء إذا سحق وعجن بالماء سكن الصداع ولا سيما إن جعل بدل الماء ماء الورد. وكذلك الحناء إذا عجنت بالخل الحاذق نفعت من الصداع شماً وضماداً، وكذلك الخشخاش الأبيض بالخل الحاذق ينفع من الصداع الحاد".

لقد كانت صيدليات العرب تزدحم بآلاف الأدوية وترتب أنواعها ترتيباً حسناً، وليس يعدو الحق في شيء من يقول: إنهم في الطب والصيدلة قد بلغوا القمة، ثم دار الزمن دورته وجرت فيهم سنة الحياة وقانونها وما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع، وتحقق فيهم قول الشاعر:

إذا تم شيء بدا نقصه ... ترقب زوالاً إذا قيل تم

* * *

لقد بدأ النجم يأفل منذ عدا عليهم التتار في الشرق والإسبان في الغرب، ثم جاء الاستعمار فأناخ عليهم بكلكله الثقيل وغمرهم في ظلمات من الجهالة. ثم بدأ الشرق يستيقظ، وبدأ العرب ينفضون عن أنفسهم غبار الجهالة، فأخذت العلوم تعود إلى الشرق كما اتجهت من لدنه إلى الغرب، وأخذ الطب والصيدلة كل منهما يسترجع ما كان له من سابق مجد.

لقد أصبح في العالم العربي عامة، وفي الجمهورية العربية خاصة أطباء عالميون وأصبح لجراحينا المكانة الأولى بين جراحي العالم:

وإذا رأت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

ترجمة كتب الطب اليونانية

المعروف أن أكثر آثار اليونان الطبية والفلسفية ترجمت في العصر العباسي إلى اللغة العربية، والحق أن الترجمة بدأت فعلاً قبل عصر العباسيين، فقد روى أن ماسرجويه ترجم كتاب "أهرن" إلى اللغة العربية في أثناء حكم بني مروان، ولما صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وجده في خزانة المكتب، وأبقاه عنده أربعين يوماً، ثم أخرجه وعرضه على الناس، وصار متداولاً بينهم.

وخالد بن يزيد بن معاوية الأموي كان طبيباً عالماً بالكيمياء، وعرف عنه أنه عني ينقل الطب إلى العربية.

غير أن الترجمة بمعناها الواسع بدأت في عهد أبي جعفر المنصور وازدهرت أيما ازدهار في عهد المأمون الذي يقال. إنه رأى في منامه شيخاً مهيباً يجلس في مجلسه ويعظ الناس. ولما سأله عن اسمه قال إنه "جالينوس" وأصبح من يومه يجمع العلماء، ويحثهم على جمع كتب هذا الفيلسوف الطبيب وترجمتها. وقيل: إنه كان يكافئ المحسن منهم بوزن كتابه ذهباً.

وإذا وضعنا في اعتبارنا نوع الورق البدائي الذي كانوا يكتبون فيه، والأقلام التي كانوا يكتبون بها، واتساع الحروف كما كانوا يرسمونها، إذا وضعنا في اعتبارنا كل هذا عرفنا ضخامة ما بذل المأمون في سبيل الترجمة.

ولم تكن الترجمة كلها من اليونانية رأساً، بل كانت من السريانية والفارسية أيضاً، كما نفهم ذلك من المحاورة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي النحوي ومتى بن يوسف والتي سجلها أبو حيان التوحيدي في كتاب "المقابسات" وقد سبقت الإشارة إلى تلك المحاورة وإثباتها بنصها: في صفحة ٩٠.

* * *

وإليك بياناً لبعض ما ترجم في هذه الفترة وما تلاها:

- كتاب الكي لأفلاطون، ولم يعرف اسم مترجمه.

- كتاب علل العين وعلاجاتها.

- كتاب الحميات والديدان التي تتولد في البطن.

- كتاب البرسام.

وكلها للإسكندروس الذي كان قد عاش قبل جالينوس، ومترجمها هو ابن البطريق.

- كتاب تشريح الأعضاء لأورماسيوس ترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب الأدوية المستعملة لأورماسيوس ترجمة اصطفن بن بسيل.

- كتاب السبعين مقالة. نقله حنين بن إسحاق وعيسى ابن يحيى السرياني.

- كتاب عهد أبقراط، وكتاب الكسر لأبقراط وتفسير جالينوس. ترجمه حنين بن إسحاق.

- كتاب جراحات الرأس، وكتاب الأخلاط تفسير جالينوس وترجمة عيسى بن يحيى.

- كتاب قاصيطرون تفسير جالينوس وترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب الأهوية والمياه والبلدان لأبقراط وترجمه ثابت بن قرة.

- كتاب الأعضاء الآلة، كتاب أوجاع الكلى والمثانة وأوجاع الحصى لجالينوس ترجمة ثابت بن قرة.

- كتاب المقالات الخمس التشريح – كتاب المزاج – كتاب القوى الطبيعية – كتاب العلل والأمراض – كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنية وكلها ترجمه حنين بن إسحاق.

- كتاب النبض الكبير.. ترجمه حبيش.

- كتاب حيل البرء ترجمة حبيش وإصلاح حنين ومحمد بن موسى.

- كتاب التشريح الكبير – كتاب اختلاف التشريح – كتاب تشريح الحيوان الميت –كتاب النبض الكبير –كتاب تشريح الحيوان الحي – كتاب علم أبقراط بالتشريح –كتاب علم أرسطوطاليس بالتشريح – كتاب تشريح الرحم، وكلها من ترجمة حبيش.

- كتاب حركات الصدر والرئة ترجمة اصطفن بن بسيل.

- كتاب علل النفس – كتاب حركة العضل من ترجمة اصطفن بن بسيل.

- كتاب الصوت ترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب الحاجة إلى النبض –كتاب الحركة المجهولة – ترجمة حبيش – كتاب خصب البدن – كتاب أفضل الهيئات – كتاب سوء المزاج ترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب الامتلاء ترجمة اصطفن بن بسيل.

- كتاب الأدوية المفردة ترجمة حنين.

- كتاب الأورام ترجمة إبراهيم بن الصلت.

- كتاب المولود لسبعة أشهر ترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب المرة السوداء ترجمة اصطفن بن بسيل.

- كتاب رداء التنفس - كتاب الذبول ترجمة حنين.

- كتاب تقدمة المعرفة - كتاب الفصد ترجمة عيسى بن يحيى.

- كتاب صفات لصبي يصرع ترجمة إبراهيم بن الصلت.

- كتاب التدبير الملطف - كتاب قوى الأغذية - كتاب تدبير أبقراط للأمراض الحادة، ترجمة حنين.

- كتاب الكيموس ترجمة ثابت بن قرة وحبيش.

- كتاب الأدوية المقابلة للأدواء ترجمة عيسى بن يحيى.

- كتاب تركيب الأدوية ترجمة حبيش.

- كتاب الترياق ترجمة يحيى بن البطريق.

- كتاب في أن الطبيب الفاضل فيلسوف ترجمة حنين.

- كتاب الرياضة بالكرة الصغيرة ترجمة حبيش.

- كتاب محنة الطبيب ترجمة حنين.

- كتاب ما يعتقد رأياً ترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب تعريف المرء عيوبه - كتاب البرهان.. ترجمة ثابت بن قرة.

- كتاب الأخلاق ترجمة حبيش.

- كتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم. ترجمة حنين.

- كتاب في أن المحرك الأول لا يتحرك، ترجمة حنين وعيسى بن يحيى.

- كتاب في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ترجمة حبيش.

- كتاب عدد المقاييس ترجمة اصطفن وإسحاق بن إسحاق.

- كتاب من لا يحضرهم طبيب - كتاب الحصاة - كتاب الماء الأصفر - كتاب وجع الكبد - كتاب صنعة ترياق الملح - كتاب خناق الرحم - كتاب عرق النسا - كتاب السرطان - كتاب عضة الكلب - كتاب علامات الأسقام - كتاب في القوباء - كتاب فيما يعرض للثة والأسنان. وكلها من تأليف قلقاريوس وترجمها أبو الحسن الحراني.

- كتاب العلل المهلكة لأوراس - كتاب طبيعة الإنسان لأرسيجانس، والمترجمون لهذه الكتب مجهولون.

وترجمت بعض كتب الهند ومنها:

- كتاب البيمارستان لمنسكه الهندي وقد أمر بنقله يحيى بن خالد البرمكي.

– كتاب في العقاقير – كتاب في علاج الحبالى – كتاب فيه مائة دواء ودواء – كتاب التوهم في الأمراض والعلل. وليس هذا كل ما ترجم، ولكنه بعض ما ترجم.

بعض مؤلفات العرب في الطب

١– ألف حنين بن إسحاق العبادي الكتب الآتية:

كتاب المسائل في الطب للمتعلمين – كتاب الحمام – كتاب اللبن – كتاب الأغذية – كتاب تقاسيم علل العين – كتاب اختيار علل العين – كتاب مداواة علل العين – كتاب آلات الغذاء – كتاب الأسنان واللثة – كتاب الباه – كتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها – كتاب تدبير الناقهين – في البول (على طريقة السؤال والجواب) – كتاب القرح وتولده – كتاب تولد الحصاة – كتاب اختيار الأدوية.

٢– ألف إسحاق بن حنين بن إسحاق الكتب الآتية:

كتاب الأدوية المفردة – كتاب الخف – كتاب الأدوية الموجودة في كل مكان – كتاب إصلاح الأدوية المسهلة – كتاب في النبض – كتاب صفة العلاج بالحديد.

٣– وألف ثابت بن قرة الكتب الآتية:

كتاب السكون بين حركتي الشريان: ألفه بالسريانية وترجمه تلميذه عيسى بن أسيد –كتاب في وجع المفاصل والنقرس – كتاب صفة كون الجنين –كتاب في المولودين لسبعة أشهر – رسالة في الجدري والحصبة – كتاب في الحصى المتولد في الكلى والمثانة –كتاب في البياض الذي يظهر في البدن –كتاب في مساءلة الطبيب للمريض –كتاب في تدابير الأمراض الحادة.

٤– وألف قسطا بن لوقا البعلبكي الكتب الآتية:

كتاب في الدم – كتاب في البلغم – كتاب الصفراء – كتاب السوداء – كتاب علة موت الفجاءة – كتاب الأعداء – كتاب في الاستدلال بالنظر إلى أصناف البول – كتاب قوانين الأغذية – كتاب الفصد – كتاب في أوجاع النقرس – الكتاب الجامع للدخول إلى علم الطب – كتاب في النبض ومعرفة الحميات – كتاب في معرفة الخدر وأنواعه وعلاجه –كتاب في تدبير الأديان في سفر الحج –كتاب في حركة الشريان.

٥– وألف جبرائيل بن عبيد الله الكتب الآتية:

كتاب الكافي ألفه للصاحب بن عباد على طريق السؤال والجواب، رسالة في عصب العين.

٦– وألف يوحنا بن ماسويه الكتب الآتية:

كتاب البرهان – كتاب البصيرة – كتاب التمام والكمال – كتاب الحميات – كتاب في الأغذية – كتاب في الأشربة – كتاب المنجي في الصفات والعلاجات – كتاب في الفصد والحجامة – كتاب في الجذام – كتاب في الأدوية المسهلة وإصلاحها – كتاب دفع مضار الأغذية – كتاب السموم وعلاجها – كتاب في الصداع وعلله وأوجاعه – كتاب محنة الطبيب – كتاب معرفة الكحالين – كتاب مجسة العروق – كتاب الصوت البحة – كتاب الجنين – كتاب تدبير الأصحاء – كتاب النوادر الطبية – كتاب القولنج – كتاب التشريح – كتاب جامع الطب – كتاب الحيلة للبرء.

٧– وألف يحيى بن عيسى بن جزلة الكتب الآتية:

كتاب تقويم الأبدان – رسالة في مدح الطب وموافقته للشرع.

٨– وألف الرازي الكتب الآتية:

كتاب الحاوي – كتاب الطب الروحاني – كتاب الشكوك والمناقضات التي في كتب جالينوس – كتاب الإكسير – كتاب في الجدري والحصبة – كتاب الطب الملوكي في العلل وعلاجها بالأغذية – كتاب الفالج – كتاب في هيئة القلب – كتاب النبض الكبير لجالينوس – كتاب العلل والأعراض لجالينوس – كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها – كتاب في القولنج – كتاب في العطش وازدياد الحرارة – كتاب سر الأسرار في الحكمة – كتاب الكافي في الطب – كتاب سر الطب – كتاب في البرء –

كتاب المرشد، ويسمى أيضاً كتاب الفصول فيه بيان العلل التي تحتاج إلى طبيب يلازم المريض – كتاب المدخل إلى الطب – كتاب في البهق والبرص – كتاب طب الفقراء – كتاب صيدلة الطب.. وكتابه في الحصبة والجدري من المؤلفات المبتكرة التي لم يستمدها من طب اليونان أو غيرهم، وقد ميز فيه المرضين، وشخص كلا منهما بدقة، وأشار على الأطباء بضرورة الفحص الدقيق لقلب المصاب ونبضه وتنفسه وبرازه عند مراقبة تطور مرضه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبع بمدينة البندقية بإيطاليا سنة ١٥٦٥م. ويصفه نيوبرجر أحد مؤرخي الطب عند الأوروبيين بأنه أنفس الكتب الطبية التي صنفها العرب وكونه أقدم بحث علمي عن الجدري يجعل له أعظم منزلة. ويعتبر (كتاب الحاوي) أضخم مجموعة طبية خلفها العرب إلا أنه لا توجد منه نسخة كاملة، وبعض أجزاء منه مبعثرة في مكتبات أوربا.

٩– وألف ابن سينا الكتب الآتية:

كتب المجموع – كتاب الحاصل والمحصول – كتاب الشفاء – كتاب القانون – كتاب النجاة – كتاب الهداية – كتاب القولنج – كتاب الأدوية القلبية – مختصر في النبض – كتاب الحواشي على القانون – كتاب عيون الحكمة.

ولكن أهم كتبه هذه كلها هو كتاب القانون.

١٠- وإسحاق بن عمران البغدادي الذي عاش في المغرب في دولة الأغالبة ألف الكتب الآتية:

نزهة النفس - المالنخوليا - الأدوية المفردة - كتاب في الفصد - كتاب في النبض - كتاب في القولنج - كتاب تدبير الأمراض الحارة.

١١- وألف ابن الجزار الطبيب القيرواني الكتب الآتية:

كتاب زاد المسافر في علاج الأمراض - كتاب الأدوية المفردة والأدوية المركبة - كتاب طب الفقراء - كتاب الزكام أسبابه وعلاجه - كتاب مجربات في الطب - كتاب الجذام: أسبابه وعلاجه - كتاب الأسباب المولدة للوباء في مصر وعلاج ذلك.

١٢- وألف علي بن رضوان الطبيب المصري الكتب الآتية:

شروح لكتب جالينوس - تفسير كتب أبقراط - كتاب الأدوية السهلة - كتاب عمل الأشربة والمعاجين - رسالة في علاج صبي أصيب بداء الفيل الأسد - كتاب ما ينبغي أن يكون في حانوت الطبيب - كتاب في دفع مضار الحلوى.

١٣- وألف ضياء الدين بن البيطار الكتب الآتية:

كتاب شرح أدوية – كتاب ديسقوريدس – كتاب الجامع في الأدوية المفردة ويعرف باسم "مفردات ابن البيطار" – كتاب المغني في الأدوية المفردة.

١٤– وألف ابن ميمون الأندلسي الكتب الآتية:

كتاب المختصرات وهو تلخيص الكتب الستة عشر لجالينوس.

كتاب شرح فصول أبقراط وهو مترجم إلى الألمانية – كتاب فصول موسى في الطب وهو مطبوع بالعبرية واللاتينية ولم يطبع باللغة العربية – كتاب في البواسير وعلاجها طبع بالعربية ومعه ترجمة عبرية وترجمة ألمانية – مقالة في بيان الأعراض، وقد ألفه للسلطان نور الدين، وقد ترجم إلى اللاتينية في القرون الوسطى – كتاب شرح أسماء العقار، وقد نشره الدكتور مايرهوف.

١٥– وألف أبو المنى داود بن أبي النصر المعروف باسم "كوهين العطار" كتاباً سماه "منهاج الدكان" ضمنه نصائح لمن يريد أن يحترف صناعة الصيدلة وقائمة بالأدوية المفردة، وله شهرة كبيرة بعد طبعه مراراً في القاهرة.

تعريفات متفرقة

انتقال الطب من اليونان إلى جند يسابور

نسطور الذي تنتمي إليه طائفة النساطرة من المسيحيين كان من الإغريق، وروى ابن القفطي أن سابور بن أزدشير ملك الفرس كان قد هادن فيلبس قيصر الروم (والد الإسكندر الأكبر) بعد تغلبه على سورية وأنطاكية، وطلب ملك الفرس من ملك الروم أن يزوجه ابنته على شيء رضيا به فقبل قيصر، وشرط عليه أن يبني لابنته مدينة على شكل القسطنطينية، فاختار قرية يملكها رجل يدعى (جندي) واشترك "سابور" في بنائها فسميت جند يسابور، ثم نقلت إليها ابنة القيصر ومعها كثير من أهل بلدها، وفي مقدمتهم جماعة من أفاضل الأطباء على رأسهم نسطور.

ومن يومئذ بدأت جند يسابور تتركز فيها القيادة الطبية.

* * *

يروي الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام ما يدل على مبلغ عناية العرب بالطب والصيدلة ورجالهما فيقول: كان عبد الرحمن العطار نصرانياً يتطبب، ومن العجيب أن أهل مكة سمحوا له أن ينزل بها، وأن يجلس في أصل منارة الحرم، ويستشيره الناس في أغراضهم.

قال: وكان يضرب به المثل فيقال "أكفر من عبد الرحمن" وذلك لقربه من الأذان والمسجد مع ما هو عليه، وقد ولد له أولاد بمكة فأسلموا، ومات ابنه داود سنة ١٧٥هـ وهو من كبار رجال الدين.

* * *

إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي النصراني:

كان هو وأبوه من أفاضل الأطباء والمترجمين، وعرف إسحاق بصحة النقل من اليونانية والسريانية، وانقطع في آخر أيامه للوزير القاسم ابن عبيد الله الذي عرف برعايته للأدباء والشعراء والعلماء. وهو الذي كتب إليه ابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر رسالة تعتبر من أبلغ رسائل الاعتذار، إذ قال: (ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً، فوالله إني لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه لتزداد تطولا، وأزداد تذللاً. وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك، ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك).

وقد ظل إسحاق منقطعاً للقاسم حتى توفى سنة ٢٩٨هـ.

* * *

بختيشوع بن جورجيس:

كان أبوه من أطباء المنصور، وكان هو قيما على المارستان (المستشفى) بجنديسابور نائباً عن أبيه، وظل كذلك حتى استدعاه الرشيد ليعالجه من مرض أصابه، فلما قدم على الرشيد قربه، وأكرمه، وجعله رئيس الأطباء، وتوفى سنة ٢٥٦هـ.

* * *

محمد بن أحمد التميمي:

درس الطب في كثير من البلاد، ونبغ في تركيب الأدوية، وأكمل ما يسمى (الترياق الفاروق) بأن زاد فيه بعض المركبات. وكان في مصر حين قامت الدولة الفاطمية، وصحب الوزير بن كلس وزير المعز لدين الله الفاطمي، وصنف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات سماه (مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من الأوباء) واختلط بأطباء المغرب الذين قدموا مع المعز لدين الله، وكان يناظرهم، ويحاضرهم. وتوفى سنة ٣٧٠هـ.

* * *

حنين بن إسحاق العبادي:

ولد سنة ١٩٤هـ بالحيرة من أب مسيحي من النساطرة، وكان أبوه صيدلياً، وتلقى حنين دروسه الأولى في مدرسة جنديسابور على يد يوحنا بن ماسويه، ثم تركه وعكف على دراسة اللغة اليونانية حتى أجادها وذهب

إلى البصرة كعبة اللغة العربية في هذه الفترة. ثم عاد إلى بغداد واتصل بالطبيب جبرائيل بن بختيشوع طبيب المأمون الخاص فقربه من الخليفة، وبذلك تمكن من الحصول على كتب يونانية عدة في الطب والصيدلة وأخذ يترجمها. ثم طاف بالعراق، وسورية، وفلسطين، ومصر سعياً وراء المخطوطات النادرة التي يقوم بترجمتها، وقيل: إنه ترجم إلى السريانية **٩٥** كتاباً وإلى العربية **٣٩** كتاباً ويمتاز في ترجماته بالدقة في أداء المعنى. وإلى جانب الترجمة كان طبيباً ماهراً بارعاً في معالجة أمراض العين.

* * *

أبو بكر الرازي:

ولد بمدينة الري قرب طهران في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي، وشغف في أول حياته بالموسيقى، وبرع في العزف على العود، ثم عكف على دراسة الفلسفة وعرف فيها بتعصبه للعقل حتى قوبل بعاصفة مدوية من النقد.

وأكثر من التردد على المستشفيات فأورثه ذلك ميلاً إلى الطب، فعكف على دراسته، ثم ممارسته، وأكثر من القراءة والكتابة فكان لا يرى إلا قارئاً أو كاتباً، ولكثرة عكوفه على القراءة والكتابة في ضوء القناديل ضعف بصره، وما زال يضعف ويضعف حتى غشيت عيناه بسبب ماء نزل عليهما أفقدهما قوة الإبصار.

وزاره وهو في طبرستان أحد تلاميذه ممن يمارسون طب العيون، وعرض عليه أن يعالجه، فقال له الرازي: اذكر لي كيفية مداواتي فعرض عليه الطريقة، فقال: أشهد أنك وحيد القداحين، وأعلم الكحالين (أطباء العيون) ولكن الأمر لا يخلو من آلام أرى نفسي تعافها، ولعل العمر قد قصر، والأجل قد قرب، فلا داعي لتحمل المتاعب، فشكراً لك على ما نويته وسعيت فيه.

ولم يعش طويلاً بعد مرضه هذا، وتوفي في ختام الربع الأول من القرن العاشر، تاركاً آثاراً يعتز بها الشرق والغرب حتى اليوم.

* * *

ابن سينا:

هو الرئيس أبو علي بن سينا، ولد في قرية قريبة من بخارى في آسيا الصغرى، وفي القرية حفظ القرآن وهو طفل. ولما بلغ العاشرة كان قد حفظ أشياء من أصول الأدب، ثم تعلم الهندسة والجبر والمقابلة، ودرس المنطق ورسائل الخلاف، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والطبية حتى صار وحيد عصره فيها ثم لحق بأمراء السامانيين، وقام بخدمة الأمير نوح بن منصور الساماني، وانتفع بما في خزانة كتبه من آثار قيمة، وفيها وقع على كتب الفارابي الفيلسوف العربي وانتفع بآرائه، ولما اضطربت أمور الدولة السامانية اضطربت أموره هو أيضاً فانتقل إلى همذان، واتصل بشمس

الدولة الذي ولاه الوزارة ولكن وشى به إلى شمس الدولة فحبسه، وظل وهو في الحبس يقرأ ويؤلف.

وأصيب بالقولنج، فأخذ يعالج نفسه، ولكنه ضعف ولما اشتد به الألم حقن نفسه في يوم واحد ثماني حقن قرحت بعض أمعائه. وفي يوم أمر بأن يكون بعض بذر الكرفس في جملة ما يحقن به، ولكن واحداً من غلمانه وضع له كثيراً من الأفيون ليقتله، لأن هذا الغلام كان قد ارتكب ذنباً وهو يخشى العقاب، وقد أثر فيه الأفيون الذي حقن به، فما زال يشتد ضعفه حتى أيقن أنه هالك لذلك وزع أمواله، وأعتق جواريه، وأخذ بختم القرآن كل ثلاثة أيام حتى توفى سنة ٤٢٨، ودفن بهمذان.

* * *

ابن ميمون:

أبو عمران موسى بن عبد الله المعروف بابن ميمون الإسرائيلي عاش في قرطبة بالأندلس وفي المغرب، وعرف باسم الرئيس موسى، وقد تلقى العلم على أبيه، ثم ظل ينتقل ويتعلم حتى أجاد معرفة الطب، وجاء إلى مصر في عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، وسكن الفسطاط، وتمتع بشهرة واسعة، جعلت القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي ومستشاره بقربه، وقد عين بعد ذلك طبيباً خاصاً للملك الأفضل نور الدين. وتوفى سنة ١٢٠٤م وقد ألف كتباً كثيرة سبقت الإشارة إليها.

ابن البيطار:

هو ضياء الدين أبو محمَّد بن عبد الله بن البيطار، ولد في الأندلس، ونزح إلى الشرق فطاف في إفريقية الشمالية، وآسيا الصغرى، وسورية ثم استوطن مصر حيث عينه السلطان الكامل رئيساً للعشابين، وبعد وفاة الملك الكامل ذهب إلى سورية، وأقام في دمشق حتى توفي فيها سنة ١٢٤٩م.

وله كتاب المفردات الذي سبقت الإشارة إليه والتعريف به. وله كتاب آخر سماه (المغنى في الأدوية المفردة) وقد استعان به تلميذه ابن السويدي في تأليف كتاب عرف باسم (التذكرة) وقد طبع في القاهرة مختصر لهذه التذكرة، وينسب هذا المختصر إلى الإمام الشعراني، وإن كانت هذه النسبة موضع شك كبير.

ابن الشبل البغدادي:

نشأ ببغداد سنة ٤٧٤هـ وبرع في الطب والحكمة والفلسفة، وله قصيدة رائعة تبلغ خمسين بيتاً، وبعض الرواة ينسبونها إلى ابن سينا ومنها:

بربـــك أيهـــا الفلـــك المـــدار أقصـــد ذا المســـير أم اضـــطرار

مـــدارك قـــل لنـــا في أي شـــيء ففـــي أفهامنـــا منـــك ابتهـــار

وفيـك نـرى الفضـاء، وهـل فضـاء ســـوى هـــذا الفضـــاء بـــه تـــدار؟

وعنـــدك ترفـــع الأرواح أم هـــل مـــع الأجســـاد يـــدركها البـــوار؟

ومن حكمه:

تسل عن كل شيء بالحياة فقد　　يهون بعد بقاء الجوهر العرض
يعوض الله مالا أنت متلفه　　وما عن النفس إن أتلفتها عوض

ومن قوله في الخمر:

نقلت زجاجات أتتنا فرغاً　　حتى إذ ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت　　وكذا الجسوم تخف بالأرواح

خاتمة

هذا بحث قصدت به إلى الكشف عن بعض جوانب ما كان للعرب من مجد قديم، وعن مدى إسهامهم في بناء الحضارة الإنسانية من أعظم جوانبها، وهو وقاية الإنسان وسلامة جسمه وعقله.

وقد ظهر من هذا البحث أن العرب في عهودهم الأولى وقفوا على قدم المساواة مع أعظم الأمم حضارة وتقدماً.

وأنهم وصلوا إلى أسمى ما يمكن الوصول إليه حين اجتمع شملهم، وتوحدت كلمتهم، وزالت من بين مناطقهم الحدود والسدود.

فحين صار الوطن العربي كله أمة واحدة، ذات نظام واحد، وحكم واحد في العصر العباسي حملت أمة العرب راية العلم والحضارة، وقادت البشرية، وحفظت تراث الأسبقين، وانبعث منها النور لتستضئ به أوربا التي كان يغمرها ظلام دامس، فلما سيطر الاستعمار على العرب، ومزق وحدتهم، وفرق جمعهم صاروا إلى مثل الظلام الذي غمر أوربا من قبلهم.

إن في ذلك لعبرة، وإن في ذلك لذكرى لقوم يعقلون.

ما أحوج العرب اليوم أن يعودوا إلى وحدتهم ويقضوا على عوامل الفرقة فيما بينهم ليعود علم مجدهم وليتبوءوا مكانهم في بناء الحضارة كما كانوا من قبل.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

المراجع

١- أبو معشر الفلكي الكبير

٢- أخبار الحكماء – لابن القفطي

٣- الأغاني – للأصفهاني

٤- الأمثال – للمفضل الضي

٥- البخلاء – للجاحظ

٦- البيان والتبيين للجاحظ

٧- تاريخ الآداب العربية – لإخوة الفرير

٨- تاريخ الإسلام – للذهبي

٩- تاريخ التمدين الإسلامي – لجورجي زيدان

١٠- تاريخ الصيدلة والعقاقير – للأب قنواتي

١١- تذكرة داود الأنطاكي

١٢- تراث الإسلام – ترجمة الجامعيين

١٣- تراث العرب العلمي – لطوقان

١٤- تفسير – القرطبي

١٥- الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط اسارطون ترجمة عمر فروخ

١٦- ثمرات الأوراق – للحموي

١٧- الحاوي – للرازي

١٨- حسن المحاضرة – للسيوطي

١٩- حياة الحيوان - للدميري

٢٠- الحيوان - للجاحظ

٢١- الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية - للرشيدي

٢٢- سفينة الأدباء لابن حجة

٢٣- ضحى الإسلام - لأحمد أمين

٢٤- الشعر الجاهلي لطه حسين

٢٥- طبقات الأمم - لصاعد الأندلسي

٢٦- الطب والتحنيط عند قدماء المصريين - للدكتور بول غليونجى

٢٧- الطب عند الفراعنة لجولس جويار ترجمة أنطون ذكري

٢٨- ظهر الإسلام - لأحمد أمين

٢٩- العقد الفريد - لابن عبد ربه

٣٠- عمدة المحتاج - لأحمد الرشيدي

٣١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - لابن أبى أصيبعة

٣٢- عيون الأخبار - لابن قتيبة الدينوري

٣٣- فجر الإسلام - لأحمد أمين

٣٤- الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي

٣٥- الفهرست - لابن النديم

٣٦- فوات الوفيات - لابن شاكر

٣٧- القانون - لابن سينا

٣٨- قصة الطب - تعريب الدكتور سعيد عبده

٣٩- كشف الظنون – لحاجي خليفة
٤٠- المادة الطبية – لأحمد الرشيدي
٤١- مجمع الأمثال – للميداني
٤٢- مروج الذهب – للمسعودي
٤٣- المعارف – لابن قتيبة
٤٤- محاضرات الأدباء – للأصفهاني
٤٥- معجم الأطباء – للدكتور أحمد عيسى
٤٦- مفردات ابن البيطار
٤٧- المقابسات – لأبي حيان التوحيدي
٤٨- مقدمة ابن خلدون
٤٩- النجوم الزاهرة
٥٠- نهاية الأرب في فنون الأدب

الفهرس